

من التاريخ العثماني



تأليف

أورخان محمد علي



روائع

من التاريخ العثماني

تأليف

أ. أورخان محمد علي

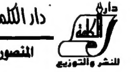


الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

بطاقة الفهرسة

على ، أورخان محمد
روائع من التاريخ العثماني
تأليف أ. أورخان محمد على . ـ ط ٣ . ـ المنصورة :
دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧م
١١٦ص ، ٢٠سم
تدمك : ٦ ـ ٢٩٢ ـ ٣١١ ـ ٩٧٧
١- الإمبراطورية العثمانية ٩٥٣,٠٩
أ- العنوان .

رقم الإيداع: ٢٦٢٩١ / ٢٠٠٧م



دار الكلمة للنشر والتوزيع ـ مصر ـ المنصورة
المنصورة ـ ص . ب . : ١٦٧ ت ف : ٠٥٠ / ٢٢٣٤٥٠٣
محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥
e_mail: mmaggour@hotmail .com


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المسلمون أمة واحدة : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ؛ لذا فتاريخ كل شعب من الشعوب الإسلامية ، ملك للأمة الإسلامية جمعاء .

والإحساس بهذه المشاركة في التاريخ ، وفي المصير ، وفي القيم الروحية من أهم الروابط التي تربط بين شعوب هذه الأمة الإسلامية .

هذه الرابطة كانت أهم هدف توجهت له سهام الأعداء ؛ لتفتيتها ، وتوهينها والقضاء عليها ... ولا يستطيع أحد أن ينكر أنهم ـ نتيجة غفلتنا ـ نجحوا في ذلك أيما نجاح .

ولكن طلائع الوعي الإسلامي تريد أن تنبه الأمة الإسلامية ، وتكشف عن خطر هذا التفتيت ، التشرذم من جهة ، وتكشف عن مدى قيمة هذه الرابطة ، وضرورتها للأمة الإسلامية ، فتنقذ بذلك هذه الأمة من خطر التبعية الفكرية والسياسية ، ومن خطر الاستلاب الحضاري ؛ لترجع لها شخصيتها المتميزة ، ودورها التاريخي ، ورسالتها العالمية والإنسانية والحضارية .

لذا فلا بد لنا أن نقرأ ونفهم تاريخنا ... تاريخ الأمة الإسلامية ... نقرؤه لا لنعيش في الماضي ونتقوقع فيه ... بل لنفهم جذورنا وشخصيتنا .

والحقيقة أننا لا نعرف تاريخ العديد من الشعوب الإسلامية ، ولا

نعرف العديد من الشخصيات التاريخية الإسلامية ، ولا نعرف في أحيان أخرى إلا النزر اليسير عن مراحل معينة في تاريخنا .

نحن نكاد لا نعرف شيئًا عن تاريخ المسلمين في أندونيسيا ، ولا نعرف تفاصيل انتشار الإسلام فيها وأسماء الشخصيات الإسلامية التي حملت معها نور الإسلام ، ونشرته هناك .

ونعرف الشيء القليل جدًا عن تاريخ الدولة العثمانية ، مع أنها كانت إمبراطورية لعبت دورًا كبيرًا ، ولمئات السنين في التاريخ .

فمن سيكتب لنا عن هذه التواريخ ؟

أين مؤرخونا ؟

هذا الفقر في كتب التاريخ في المكتبة العربية ، جانب من جوانب الخلل والقصور فيها .

ولا أدعي أن هذا كتاب في التاريخ ، بل هو عن قصص تاريخية حقيقية ، استقصيتها من كتب ومصادر تاريخية عديدة ، وهذه القصص تكشف العديد من الجوانب النفسية ، ومن العلاقات ، ومن المفاهيم التي كانت سائدة في تلك العهود بشكل أفضل مما تقدمه كتب التاريخ ، أي يمكن عد هذا الكتاب ، لقطات صور قريبة لبعض الشخصيات ولبعض الحوادث ، وليس كتابًا تاريخيًا يقدم صورة عامة ، وكلية عن عهد معين وتحليلاً له .

في هذه اللقطات القريبة ، تتبين لك خطوط وملامح بعض الأحداث وبعض الشخصيات التاريخية بشكل واضح ، وتتكشف

لك ملامح الشخصية الإسلامية المتميزة ، التي تكاد لا تجد لها مثيلًا في شخصيات الأمم الأخرى .

وقد رتبت هذه القصص حسب تسلسلها التاريخي ، وأعطيت معلومات تاريخية مختصرة عن كل سلطان وردت حوله قصة أو أكثر .

وفي أحيان قليلة تكررت بعض المعلومات ، ذلك لأن هذه القصص نشرت بشكل غير متسلسل في إحدى المجلات ، فكان من الضروري تكرار بعض المعلومات للقراء .

أورخان محمد علي

*****



معلومات تاريخية

(أورخان غازي)

والده : عثمان غازي « مؤسس الدولة العثمانية » .

والدته : مال خاتون .

ولادته : ١٢٨١م

سنوات حكمه : ١٣٢٦ ـ ١٣٦٠م .

وفاته : ١٣٦٠م .

أهم إنجازاته : فتح « أزنيك » ، « تاراكلي » ، « أكوينوك » ، « مودورنو » ، « كَملك » ، « أزميت » ، « كويون حصار » ، « هَركَة » ، « يالاوة » ، « إسكدار » ، « قاضي كوي » ، « جزيرة مرمرة » ، « أنقرة » ، « آبدوس » ، « سمنديرة » .

كما قام بتصفية إمارات عديدة ، وضمها إلى دولته كإمارة « كَردة » ، و « فتحي » ، و « قرصي » .

نقل العاصمة من « يني شهر » إلى « بورصة » .

قام ابنه البكر « سليمان باشا » بفتح « رومّلي » و « غاليبولي » ، ولكنه بعد إتمام الفتح مات في حادثة صيد ، فجاء أخوه « مراد » إلى الحكم بعد وفاة والده « أورخان » .

كان حاكمًا عادلًا وتقيًا ، اهتم بشؤون الرعية ، حتى قال المؤرخون : إنه لم يبق هناك في أواخر عهده فقير يحتاج إلى الزكاة .
اهتم بالعلم والعلماء ، وجالسهم .

قال عنه المؤرخ الروماني « هالكونديل » :

(كان سخيًا للفرسان ، وللصناع ، وللفقراء ، يحترم العلماء والأبطال ، وكان تقيًا ، وعادلًا ، ومنصفًا ، ورقيقًا تجاه النصارى) .

*****

إلى قارة أوروبا .... بثمانين مجاهدًا

(هذه قصة انتقال العثمانيين إلى « روملِّي » أي إلى قارة أوروبا ، وذلك في عهد السلطان « أورخان » ابن السلطان عثمان ، مؤسس الدولة العثمانية) .

كانت الغرفة الكبيرة مملوءة برؤساء عشيرة « قابي » ، وبرجالها البارزين ... كان الجميع في انتظار رئيسهم « أورخان » ، الذي أرسل يستدعيهم ليشاورهم في أمرٍ هام لم يفصح عنه .

ما الأمر ؟ لماذا استدعاهم كلهم ؟ أهناك معاهدة جديدة مع البيزنطيين يريد أن يأخذ رأيهم حولها ؟ لم يكن أحد يدري ، وكان الهمس يدور بين الجميع .

ما لبث الهمس أن توقف عندما دخل رئيس العشيرة الغرفة ، يتبعه ابنه الأكبر « سليمان باشا » ... سلم على الجميع بسلام الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... ردوا عليه السلام ، وهم يتطلعون إليه وينتظرون حديثه .

أجال زعيمهم « أورخان » نظره بين الجالسين ، ثم بدأ حديثه معهم قائلًا :

يا إخواني ويا أصدقاء السلاح ... تعلمون أننا استولينا على مدينة « بورصة » ، وجعلناها عاصمة لمملكتنا ، فحققنا بذلك وصية والدنا المرحوم : « عثمان » ، كما وفقنا الله ـ تعالى ـ لفتح جميع

حصون ومعاقل الروم في هذه المنطقة ، حتى اضطر إمبراطورهم « يوانيس كانتكوزينوس السادس » إلى عقد الصلح معنا ... ولكن لا يكفي هذا يا إخواني ، إذ أن علينا أن نعبُر إلى « روملي » ؛ لنستمر في الفتوحات هناك أيضًا ... فما رأيكم وما قولكم ؟

قام الغازي « فاضل بك » ، وكان من قواد العشيرة ، وهتف ، وقد أخذ منه التأثر كل مأخذ :

الله أكبر ... الله أكبر ... لقد كنا ننتظر هذه البشرى منذ وقت طويل ... بارك الله فيكم ، ونحن جميعًا من ورائك .

وسرى الانفعال والحماسة إلى الآخرين ، فقام كل واحد يحتضن الآخر ، ويهنئه . هنا مال « سليمان » وهمس في أذن والده « أورخان » :

ألا تجعلني على رأس هذه الحملة يا أبي ؟

ابتسم الوالد من رغبة وطموح ابنه الشاب ، ولكنه تردد قليلًا ، فهذه الحملة تحتاج إلى حكمة قائد ، وإلى تجربة شخص متمرس ؛ لذا فقد استشار قواده :

ـ إن ابني « سليمان » يرغب في قيادة هذه الحملة ... فماذا ترون ؟

كان قواده يعرفون الأمير « سليمان » حق المعرفة ، ويعرفون بسالته وشجاعته في المعارك التي خاضها معهم ؛ لذا قالوا جميعًا :

ـ حسنًا يفعل ، ونحن تحت إمرته وطوع بنانه .

ـ إذن نوليه هذه القيادة بعد التوكل على الله ... ولكن يا إخواني أرجو أن تساعدوه وأن تشيروا عليه أن يستشيركم في كل أمر في هذه الحملة .

وانفض الاجتماع .

وفي صباح أحد الأيام كانت هناك حركة دائبة في معسكر المسلمين ، إذ حُدت السيوف والرماح ، ولبست الدروع ، وتعالى صهيل الخيول ... وبعد قليل توجه فرسان الإسلام إلى الشمال ، ينهبون الأرض نهبًا ، حتى انتهى البر، وظهر أمامهم البحر ... البحر الذي يفصلهم عن قارة أوروبا ... عن قارة جديدة سينشرون فيها الإسلام .

عسكر المسلمون هناك ، ريثما يجدوا حلًا لعبور هذا البحر .

كان الأمير « سليمان » دائم التفكير في كيفية حل هذه المشكلة ، وبينما هو واقف في الساحل يتطلع ـ ساهمًا ـ إلى الضفة الأخرى في البحر ، اقترب منه الغازي « فاضل بك » ومعه الفارس « أجه بَيْ » وسأله :

ـ بماذا تفكر أيها الأمير ؟

ـ أفكر في كيفية عبور هذا البحر ، إلى الضفة الأخرى ، دون أن يشعر الأعداء بذلك .

ـ إن أصدرتم لنا أمركم ؛ فسنعبر نحن .

ـ كيف ؟ ومن أين ؟

ـ علمنا أن هناك مضيقًا قريبًا نستطيع العبور عنده ، ويوجد لهم حصن هناك .

ـ حسنًا ... اعبروا إذن ولكن في مهمة استطلاعية في أول الأمر .

ـ ذهبوا إلى المضيق وصنعوا هناك طوفًا صغيرًا من جذوع الأشجار ، وعندما حل المساء ، ركب الغازي « فاضل بك » والفارس « أجه بَيْ » مع عدد قليل من الفرسان هذا الطوف ، وانتقلوا به إلى الضفة الأخرى ، وهناك رأوا أحد الأشخاص وهو نائم فألقوا القبض عليه ورجعوا به إلى قائدهم « سليمان باشا » ... كان هذا الأسير يرتجف من الخوف ، إذ أيقن أنهم سيقتلونه ، ولكن « سليمان باشا » هدأ من روعه وأطعمه ، وأهدى إليه حلة جديدة ، وهدايا أخرى جعلته يطير من الفرح ، ثم سأله مسألة :

ـ أتستطيع أن تدلنا على منفذ نستطيع الدخول منه إلى الحصن دون أن يحس بنا أحد ؟

ـ أجل سيدي ... أستطيع ذلك إذ أنني أعرف الحصن جيدًا .

ـ لو فعلت هذا ، وتحققنا من صدق كلامك ، فسأجزل لك العطاء .

ـ أنا أعدكم يا سيدي ... لن يحس بنا أحد .

وسرعان ما أصدر « سليمان باشا » أمره بصنع أطواف أخرى أكبر حجمًا ... وفي مساء اليوم الثاني ، وبعد أن تم صنع الأطواف ، اختار ثمانين صنديدًا من فرسانه ركبوا الأطواف وانتقلوا به في جنح

الظلام إلى الضفة الأخرى بكل هدوء ، ودون إحداث جلبة ، هناك دلهم الشخص على ممر سري [١] .

تسلل « سليمان باشا » وجنوده الثمانون إلى الحصن بكل هدوء ... كان الموسم موسم حِصاد وجمع للفواكه ؛ لذا فقد كان أكثر سكان الحصن في البساتين والحقول المحيطة بالحصن ؛ لذا فلم يصعب عليه الاستيلاء على الحصن ، ولم تتيسر المقاومة للأعداء ، فاستسلموا ، فحقنوا بذلك دماءهم إذ لم يتعرض لهم المسلمون بأي أذى .

ولم يدع « سليمان باشا » الوقت يمر دون فائدة ، فأرسل بعض رجاله حيث استولوا على السفن الراسية هناك ، والعائدة للحصن ، وانتقلوا بها إلى الضفة الأخرى ، ونقلوا بقية الجنود الموجودين هناك .

وقبل أن ينتشر هذا الخبر ـ أي خبر استيلاء المسلمين على الحصن ـ هاجم المسلمون حصنًا آخر قريبًا ، وفتحوه أيضًا فأصبحوا يملكون حصنين كبيرين كموضع قدم لهم في قارة جديدة يطأوونها لأول مرة .

كانت هذه هي البداية ... بداية انتشار المسلمين في قارة أخرى ، ستكون لهم فيما بعد صولات ، وجولات وفتوحات كبيرة .

*****

(١) تذكر بعض المصادر التاريخية : أن هذا الممر السري كان قناة المياة التي تصرف المياه القذرة للحصن ، وترمي بها في البحر .

معلومات تاريخية

(السلطان مراد الأول)

والده : أورخان غازي .

والدته : نيلوفر خاتون .

ولادته : ١٣٢٦م .

سنوات حكمه : ١٣٦٠ ـ ١٣٨٩م .

أهم فتوحاته : قام بفتح بعض سواحل البحر الأسود ، وفتح القلاع التالية :

« ديما توكا » ، « بنار حصار » ، بابا أسكي » ، « لولو بورغازي » ، « كشان » ، « سيزابولو » ، « فيزا » ، « كيرك كليسة » ، « صاموكو » ، « بابا أسكي » ، « جورلوا » .

فتح المدن والمناطق التالية :

« أدرنة » ، « ينجة » ، « يانبولي » ، « إسليميا » ، « فيليبياري » ، « بيغا » ، « قيزل آغاج » ، « كارنيوفا » ، « أيدوس » ، « بورغاز » ، « آنجة كيز » ، « فيراجك » وأجزاء من مقدونيا ، ونيش ، « جاتالاجه » ، « إشتب » ، « مناصتر » ، « صوفيا » وأجزاء من ألبانيا .

نقل العاصمة إلى مدينة « أدرنة » .

السلطان الشهيد

كان السلطان « مراد الأول » (١٣٢٦ ـ ١٣٨٨م) سلطانًا غازيًا ، صرف سنوات حكمه الطويل (٣٠ سنة) في الفتوحات ، ووسع مملكته التي كانت مساحتها عن استلامه الحكم تبلغ ١٠٠٠٠٠كم٢ تقريبًا إلى مملكة مساحتها ٤٠٠٠٠٠ ، أي وسعها أربعة أضعاف ؛ لذا يعد أول امبراطور أو أول سلطان في الدولة العثمانية ، إذ أن والده « أورخان » ، وجده « عثمان » كان يلقبان بـ « بك » .

ولما كانت معظم فتوحات هذا السلطان في قارة أوروبا ، فقد اجتاحت الدول الأوروبية موجة من الخوف من هذه القوة المتعاظمة لهذه الدولة الفتية ، فعقدت بلغاريا والصرب وبولندا والمجر حلفًا بينهم ، وهيأوا جيشًا مشتركًا ضخمًا ، وضعوه تحت قيادة ملك المجر « لايوش » لإخراج المسلمين من قارة أوروبا ، وإبعادهم عنها .

كان السلطان « مراد » في « بورصة » عاصمة مملكته مع معظم جيشه ، ولكن أحد قواده وهو : « حاجي إل بي » الذي كان على رأس جيش قوامه عشرة آلاف جندي قريبًا من الجيش الصليبي المتقدم نحو حدود الدولة العثمانية ، فتوجه إليه ولاقاه في الطريق .

كان الجيش الصليبي أضعاف الجيش العثماني ، ولكنه لم يكن يتوقع هجومًا عليه ، إذ لم يكن على علم بوجود جيش عثماني صغير بالقرب منه ؛ لذا فقد استفاد القائد العثماني من عنصر المفاجأة ،

وهجم على معسكر الجيش الصليبي هجومًا صاعقًا ، فشتتهم ودحرهم .

نزل خبر انتصار المسلمين في هذه المعركة نزول الصاعقة على أوروبا ، وتبخرت آمالهم في التخلص من العثمانيين بسهولة ، ولكن البابا « أريان الخامس » دعا كل دول أوروبا لإعداد حملة صليبية أضخم وأكبر ؛ لتحقيق دفع المسلمين من قارة أوروبا . لكن الخوف والرعب السائد في أوروبا عقب هذه المعركة كان كبيرًا ، إلى درجة أنه لم يستجب أي ملك من ملوك أوروبا لهذا النداء .

ولكن العثمانيين استمروا في فتوحاتهم في « مقدونيا » فزادت المخاوف هناك ، واضطر « لازار كرابلينو فيج » ملك الصرب إلى توقيع معاهدة مع السلطان يدفع بموجبها ضريبة سنوية كبيرة للدولة العثمانية ، كما دخل « شيشمان » ملك البلغار تحت حماية الدولة العثمانية وأهدى أخته « ماريا » للسلطان ، ولكنه ندم بعد ذلك على هذا ، وقال : « لقد خنت دماء المسيحيين التي أريقت كالسيل » ؛ لذا لم يتردد في الدخول إلى حلف سري ضد الدولة العثمانية ؛ هذا الحلف الذي أنشأه « لازار » ملك الصرب وانضم إليه « توارتكو الأول » ملك « بوصنة » أيضًا ، ثم توسع هذا الحلف فدخل فيه الألبانيون ، والبولنديون ، والبوشناق . وجمعوا جيشًا ضخمًا ، وضعوه تحت قيادة « لازار » . كان هذا الجيش ضخمًا إلى درجة ساد شعار (لو أن السماء وقعت لتلقيناها بأسنة حرابنا) بين جنود هذا الجيش اللجب .

وبعد مفاوضات فاشلة تهيأ الجيشان للمعركة في ميدان « قوصوه » ونظرًا لأن الجيش الصليبي سبق الجيش العثماني في الوصول إلى هذا الميدان ، فإنه احتل أفضل التلال المشرفة على الميدان ، وحقق بذلك نقطة إيجابية لصالحه .

في الليلة التي سبقت المعركة ، رفع السلطان « مراد » يديه نحو السماء بدعاء جهري ذكره المؤرخون جاء فيه :

(يا رب ... بحرمة نبيك الكريم ﷺ ، وبحرمة الدم الطاهر المسفوك في « كربلاء » ، وبحرمة العيون الدامعة خشية منك ، وبحرمة الوجوه المتولهة بعشقك ...) واستمر في دعائه :

(أعن بنصرك أهل الإسلام ، وتجاوز عن أخطائنا يا رب ، ولا تشتت المجاهدين في سبيلك بسبب خطايانا ، ولا تسود وجوهنا بين الناس ، واجعلني فداءً للدين ، وارزقني الشهادة يا رب !) .

في صباح اليوم التالي ، أي في ١٥ من حزيران سنة ١٣٨٩م التحم الجيشان ، وكان السلطان « مراد » وابنه وولي عهده « بايزيد » مع جميع وزرائه ، وقواده بأيديهم السيوف ، يقاتلون جنبًا إلى جنب مع الجنود ، وقد أبدى ولي العهد ـ خاصة ـ شجاعة فائقة في هذه المعركة ، فكان ذلك برهانًا على صدق اللقب الذي لقب به سنة ١٣٨٦م ، وهو لقب « الصاعقة » ؛ إذ كان ينزل كالصاعقة على الأعداء .

انتهت معركة « قوصوة » في مساء ذلك اليوم ، بانهزام الجيش الصليبي ، وبمقتل قائده الملك « لازار » وبانتصار المسلمين انتصارًا

ساحقًا ، وتعد هذه المعركة إحدى المعارك التاريخية المهمة في تاريخ الحروب .

وفي صباح اليوم التالي ، خرج السلطان تحف به معيته من الوزراء والقواد ، وبدأ يتجول في ميدان المعركة ... كانت الجثث من كلا الطرفين تملأ الميدان ، وبدأ يتفقد الجرحى ويأمر بنقلهم ومداواتهم ، وفي أثناء تفقده هذا تقدم إليه أحد القواد وقال له :

- يا مولاي ... هناك بين الجرحى نبيل من نبلاء الصرب يرغب في رؤيتك ؛ لأنه يريد أن يشهر إسلامه بين يديك .

- أين هو ؟

- هناك يا مولاي .

وأشار بيده إلى مكان الجريح .

- هيا لنذهب إليه ، فنحن لا نستطيع رد طلب شخص يريد إعلان إسلامه .

كان هذا الجريح نبيلًا من نبلاء الصرب اسمه « ميلوش كابيلوفج » وكان جرحه بسيطًا ، ولم يكن يرغب في الحقيقة ، إلا في اغتيال سلطان المسلمين ، الذي أوقع الهزيمة القاسية بكل جيوش أوروبا ؛ لذا فقد خبأ خنجرًا بين ملابسه .

اقترب السلطان مع معيته إلى موضع هذا الجريح ، الذي قام لاستقبال السلطان ، ثم تقدم إليه وكأنه يريد تقبيل يديه ، وبلمح البصر استل خنجره ، وسدد به ضربة قوية إلى صدر السلطان .

تهاوى السلطان « مراد » بين أذرع قادته الذين أخذتهم المفاجأة ، ولم يستطع إلا أن يقول كلمته الأخيرة :

ـ هذا هو قدري ... ليكن « بايزيد » في مكاني .

ثم نطق بالشهادتين ، وجاد بروحه .

وهكذا استجاب الله لدعاء السلطان « مراد » فرزقه الشهادة .

ورجع الجيش العثماني إلى « بورصة » مع جثة السلطان الشهيد ، حيث دفن هناك .

أما ذلك الصربي فقد تناوشته سيوف الجنود بعد اغتيال السلطان وقتل هناك .

*****

معلومات تاريخية
(السلطان بايزيد الأول)
الملقب بـ « الصاعقة »

والده : السلطان « مراد الأول »

والدته : كول ججك خاتون .

ولادته : ١٣٦٠م .

ارتقاؤه العرش : ١٣٨٥م .

وقوعه في الأسر : ١٤٠٢م .

وفاته : ١٤٠٣م .

أهم أعماله الحربية : ضم الصرب إلى الدولة العثمانية « وفتح بلغاريا » و « بوصنة » و « سلانيك » و « يني شهر » ، وقام بالحصار الأول والثاني والثالث لمدينة « اسطنبول » ولكنه لم يستطع فتحها .

فتح « إشكودار » و « آماصيا » ، ثم أكمل فتح « ألبانيا » .

فتح « شيلة » وجميع الإمارات الموجودة على ساحل البحر الأسود .

أزال العديد من الإمارات التركية التي كانت موجودة في « الأناضول »

وضمها إلى الدولة العثمانية .

هُزم في معركة « أنقرة » التي جرت بينه وبين « تيمور لنك » ، وأُسر ومات في الأسر كمدًا وحزنًا بعد سنة واحدة .

*****

الحق ..... والصلاحية

نحن الآن في عهد السلطان « بايزيد الأول » ، الملقب بـ « الصاعقة » (١٣٦٠ ـ ١٤٠٣م) الذي أفزع العالم المسيحي عندما قام بحصار مدينة « القسطنطينية » في عهد الامبراطور البيزنطي : « مانويل » سنة ١٣٩١م . فاجتمع مجلس الأعيان في مدينة « البندقية » عام ١٣٩٣م ، وقرروا إرسال نداء إلى جميع ملوك أوروبا لجمع جهودهم وجيوشهم ؛ لقتال العثمانيين وإخراجهم من أوروبا .

من جانب آخر عقد « سيجموند » ملك المجر ، اتفاقًا سريًا مع « شيشمان » ملك البلغار ضد العثمانيين ، وكان هذا الاتفاق يرمي إلى استرجاع الجزء الذي فتحه العثمانيون في عهد السلطان « مراد الأول » .

ما إن سمع السلطان « بايزيد » بهذا الاتفاق ، حتى أرسل حملة قوية إلى « بلغاريا » ، واستطاعت هذه الحملة التقدم نحو العاصمة « طور نوفا » وحصارها وفتحها ، ثم تقدمت واستولت على مدن « سلسترا » و « نيغبولي » و « فيدين » على طول نهر الدانوب ، كما تم أسْرُ الملك « شيشمان » وإرساله إلى مدينة « أدرنة » التي كانت آنذاك عاصمة للدولة العثمانية . فأصبحت بلغاريا بأجمعها ضمن المملكة العثمانية .

ارتعب « سيجموند » ملك المجر من هذه التطورات السريعة ، وعلم أن الدور سيكون عليه ، ولكنه أراد أن يظهر اعتزازه بنفسه ،

وأنه لا يخاف أحدًا ، فأرسل وفدًا إلى السلطان « بايزيد » .

كان الوفد مكلفًا أن يقول للسلطان شيئًا واحدًا وهو :

ـ بأي حق وبأية صلاحية قمتم بغزو « بلغاريا » ؟

استمع السلطان إلى الوفد ، وابتسم ابتسامة خفيفة ، ثم قال للوفد :

ـ حسنًا ! ... سأُريكم بأي حق ، وبأي صلاحية قمنا بغزو « بلغاريا » .

ثم همس في أذن الحاجب ، وطلب منه أن يأتيه بمصحف ، وعندما أتاه بالمصحف قبله أولًا ، ثم أخذه بيمينه وسل سيفه بيساره ، وقال للوفد ، وهو يرفع يده اليمنى بالمصحف :

ـ بهذا الحق أيها السفير ... بهذا المصحف .

ثم رفع سيفه بيساره :

ـ وبهذه الصلاحية أيها السفير ... بهذا السيف .

وخرج الوفد من عنده وقد نكسُوا رؤوسهم .

*****

السلطان الذي رُفِضَت شهادته

نحن الآن في مدينة « بورصة » في عهد السلطان العثماني « بايزيد » الملقب بـ « الصاعقة » ... الفاتح الكبير ... فاتح بلاد « البلغار » و« البورصنة » و « سلانيك » و « ألبانيا » ... السلطان الذي سجل انتصارًا ساحقًا على الجيوش الصليبية ، التي دعا إلى حشدها البابا « بونيغا جيوش الرابع » ؛ لطرد المسلمين من أوربا ، والتي اشتركت فيها خمس عشرة دولة أوربية كانت « انجلترا » و « فرنسا » و « المجر » من بينها ، وذلك في المعركة التاريخية المشهورة ، والدامية ... معركة « نيغبولي » سنة ١٣٩٦ م .

هذا السلطان الفاتح اقتضى حضوره للإدلاء بشهادة في أمر من الأمور أمام القاضي والعالم المعروف « شمس الدين فناري » .

دخل السلطان المحكمة ... ووقف أمام القاضي ، وقد عقد يديه أمامه كأي شاهد اعتيادي .

رفع القاضي بصره إلى السلطان ، وأخذ يتطلع إليه بنظرات محتدة ، قبل أن يقول له :

(إن شهادتك لا يمكن قبولها ؛ ذلك لأنك لا تؤدي صلواتك جماعة ، والشخص الذي لا يؤدي صلاته جماعة ، دون عذر شرعي يمكن أن يكذب في شهادته) .

نزلت كلمات القاضي نزول الصاعقة على رؤوس الحاضرين في المحكمة ... كان هذا اتهامًا كبيرًا ، بل إهانة كبيرة للسلطان « بايزيد » تَسَمَّر الحاضرون في أماكنهم ، وقد أمسكوا بأنفاسهم ينتظرون أن يطير رأس القاضي بإشارة واحدة من السلطان ... ولكن السلطان لم يقل شيئًا ، بل استدار وخرج من المحكمة بكل هدوء .

أصدر السلطان في اليوم نفسه أمرًا ببناء جامع ملاصق لقصره ، وعندما تم تشييد الجامع ، بدأ السلطان يؤدي صلواته فيه جماعة .

هذا ما سجله المؤرخ التركي « عثمان نزار » في كتابه : « حديقة السلاطين » المؤلف قبل مئات السنين .

عندما كان المسلمون يملكون أمثال هؤلاء العلماء ، ملكوا أمثال هؤلاء السلاطين .

*****

صمونجي بابا

هذه قصة ولي من أولياء الله ، اسمه « حامد آقصرابلي » ولكنه عُرف بين أهالي مدينة « بورصة » باسم « صمونجي بابا » ؛ لأنه كان يبيع « الصمون » أي الخبز لهم .

ولد في مدينة « قيصري » وسافر في طلب العلم إلى بلاد « الشام » و « وتبريز » ووصل إلى « أردبيل » وهي : مدينة في شمالي غرب إيران اشتهرت بمكتبتها [1] الكبيرة ، وعاشت فترة من الازدهار الثقافي . وهناك التقى الولي والعالم الكبير « علاء الدين الأردبيلي » ولازمه ، وبقي في خدمته سنوات عديدة ، فنهل من علمه ودرج مثله في مدارج التصوف والزهد .

ثم رجع وسكن في مدينة « بورصة » ، وكانت آنذاك عاصمة الدولة العثمانية ، فقد كان ذلك في عهد السلطان « بايزيد الأول » (١٣٦٠ ـ ١٤٠٣م) .

قضى « صمونجي بابا) سنوات عديدة من عمره في مدينة « بورصة » يخبز الخبز في فرنه المتواضع في البيت ، ثم يضعه في سلة كبيرة يحملها على ظهره ، ويمشي في الأسواق في الأزقة ، وما إن يراه الصبيان حتى يهتفوا :

ـ جاء « صمونجي بابا » ... جاء « صمونجي بابا » .

---

(١) عندما استولى الروس على هذه المدينة سنة ١٨٢٨ م ، نقلوا هذه المكتبة الكبيرة إلى مدينة « سان بطرسبرج » ، أي إلى مدينة « لينتجراد » الحالية .

وسرعان ما يتجمعون حوله ، ويبتاعون منه الخبز ... كان جميع أطفال وصبيان وأهالي « بورصة » يحبونه ، فوجهه نوراني ، وهو بشوش يحب الأطفال ويلاطفهم ، وخبزه حار ، ولذيذ ، ونظيف .

وعندما بدأ السلطان « بايزيد » ببناء جامع « ألو جامع » (أي الجامع الكبير ، أو الجامع العظيم) اعتاد عمال البناء شراء الخبز من « صمونجي بابا » .

اكتمل بناء هذا الجامع الذي يعد آية من آيات العمارة الإسلامية ، وتعد الآيات الكريمات التي تزينه آية في فن الخط ، وتقرر افتتاحه بصلاة الجمعة .

وفي يوم الجمعة :حضر السلطان « بايزيد الأول » إلى الجامع مع الوزراء والعلماء ، وجمع وفير من أهالي « بورصة » حتى امتلأ هذا الجامع الكبير على سعته ، وعندما حان وقت الخطبة ، التفت السلطان إلى العالم الكبير « أمير سلطان » وكلفه بإلقاء الخطبة .

وقف « أمير سلطان » قرب المنبر ، وبدأ يجول ببصره في الحضور ، وكأنه يفتش عن أحدهم ... أجل كان يفتش عن « صمونجي بابا » فهو يعرف قدره وعلمه ، وإن جهله الناس ، واعتقدوا أنه ليس إلا رجلاً طيبًا يبيع الخبز ... وأخيرًا وقع بصره عليه ... ثم قال بصوت سمعه كل الحضور ، وهو يشير بيده إليه :

ـ ليس في هذا الجامع من هو أحق من هذا الرجل من إلقاء هذه الخطبة .

ـ دهش الحاضرون من هذا الكلام ، وبدؤوا يتطلعون إلى الجهة التي أشار إليها العالم « أمير سلطان » وأحس « صمونجي بابا » بحرج شديد ، فقد كتم أمره عن الناس طوال هذه السنوات ، فلا يعرفون عنه إلا أنه بائع خبز ، وها هو « أمير سلطان » يفاجئه فيكشف أمره للناس .

قام من مكانه مضطرًا واتجه إلى المنبر ، والأنظار مصوبة إليه ، وقبل أن يصعد إلى المنبر ، مال على أذن « أمير سلطان » وهمس له معاتبًا :

ـ ماذا فعلت يا أخي ؟ لقد كشفتني أمام الناس جميعًا .

فأجابه « أمير سلطان » بالهمس نفسه :

ـ أنت الأجدر بإلقاء هذه الخطبة يا أخي .

صعد الولي المتخفي على المنبر ، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، قرأ سورة « الفاتحة » ، وبدأ بتفسير معانيها الكبيرة من سبعة أوجه ، وكانت خطبة ، وتفسيرًا رائعًا ، أخذ بمجامع قلوب الحاضرين .

ولم يخف العالم الكبير ، والمعروف « ملا فناري » الذي كان حاضرًا ، وسمع هذه الخطبة التي حيرته ودهشته وأعجبته ، فقال فيما بعد لأصدقائه :

ـ لقد شاهدنا هذا الرجل ، وتبحره في العلم وفي التفسير ، فالتفسير الأول للفاتحة فهمه الجميع ، والتفسير الثاني فهمه البعض ، والتفسير الثالث فهمه القلة ، والخواص فقط ، أما التفسير الرابع ،

والخامس والسادس والسابع ، فقد كان فوق طاقة إدراكنا .

وانتشر الخبر في أرجاء العاصمة « بورصة » بسرعة ، وعرف الجميع حقيق هذا الرجل المتواضع الفقير ، الذي يحمل سلة الخبز على ظهره ، ويتجول في الأسواق وفي الأزقة ، ويتلاطف مع الأطفال والصبيان ... عرفوا أنه عالم كبير ، وولي من أولياء الله ، وانتظروا رؤيته ؛ لكي يقبلوا يديه ويسألوه الدعاء ، ولكنهم لم يروه ... أجل لم يروه بعد تلك الخطبة ، لقد رحل هذا الولي عن « بورصة » بعد أن انكشف أمره ... ورحل إلى مدينة أخرى لا يعرفه الناس فيها .

مات رحمه الله في مدينة « آق صراي » ودفن فيها .

*****

معلومات تاريخية

(السلطان مراد الثاني)

والده : السلطان « محمد الأول » .

والدته : أمينة خاتون .

ولادته : ١٤٠٣م .

ارتقاؤه العرش : ١٤٢١م .

تخليه عن العرش : ١٤٤٤م .

ارتقاؤه العرش مرة ثانية : ١٤٤٥ م .

وفاته : ١٤٥١ م .

أهم أعماله الحربية : حملاته على « أفلاك » وعلى « ألبانيا » وعلى جزيرة « مواري » انتصاره في هذه المعارك . فتح « سلانيك » .

انتصاره على البندقيين في « غاليبولي » .

قضاؤه على العديد من الإمارات وضمها إلى الدولة العثمانية مثل إمارة « منتشة » و « تكه » . حصار « بلغراد » .

الانتصار على الجيوش الصليبية في معركة « وارنا » .

انتصاره في معركة « قوصوه » الثانية على الجيوش الصليبية .

وفد النصارى
إلى السلطان مراد الثاني

عندما خسر السلطان « بايزيد الأول » (١٣٦٠ ـ ١٤٠٣م) معركة « أنقرة » أمام خصمه العنيد « تيمورْ لنك » وأُسِر بدأ عهد من الاضطراب والفوضى في الأناضول ، وانتهز أمراء « البندقية » هذه الفرصة واحتلوا مدينة « سلانيك » .

وكما هو معلوم ، فإن عهد الفوضى والاضطراب والتشتت دام في الأناضول ، حتى نجح أحد أبناء السلطان « بايزيد الأول » وهو السلطان « محمد الأول » (١٢٨٩ ـ ١٤١٢م) في القضاء على التشرذم ، وعلى الإمارات التي تكونت في الأناضول ، وأن يوحد الدولة تحت راية واحدة .

لم يتيسر للسلطان « محمد الأول » استعادة مدينة « سلانيك » ، إذ كان مشغولاً بمهمة أكبر وأعظم ، وهي مهمة توحيد الدولة وتأسيسها من جديد .

ولكن ابنه السلطان « مراد الثاني » (١٤٠٣ ـ ١٤٥١م) الذي تولى الحكم من بعده ، لم ينس « سلانيك » ولكنه أحب أن يسترجع هذه المدينة بالحسنى ، فبدأ بإرسال الهدايا إلى حكام « البندقية » وطلب منهم إخلاء المدينة وإرجاعها إليه ، وأرسل حكام البندقية وفودًا إليه للمماطلة ، وكسب الوقت ، ولكن عندما نفد صبر السلطان ، قال لرئيس آخر وفد منهم :

ـ لقد قام أجدادنا [1] بفتح « سلانيك » فأصبحت هذه مدينة إسلامية ؛ لذا لا يمكننا أن نقبل دخول ، أو حكم أي أجنبي لها ، فإن لم تتركوا « سلانيك » وتخلوها طوعًا ، أتيت وأخرجتكم منها كرها .

انتظر السلطان عدة أشهر ، وعندما لم يأت أي جواب منهم ، جهز حملة بحرية سنة ١٤٣١م ، والتقى بأسطول البندقيين قرب « غاليبولي » وهزمهم شر هزيمة ، ثم وصل إلى « سلانيك » ، وحاصرها ثم هاجمها ، واستردها بعد قتال عنيف ، ودخل المدينة منتصرًا .

عندما كان السلطان « مراد » في مدينة « سلانيك » اعلموه أن وفدًا من مدينة « يانيا » قد حضر ، وهم يرجون المثول بين يديه لأمر هام ... تعجب السلطان من هذا الخبر ، إذ لم تكن له أي علاقة بهذه المدينة التي كانت آنذاك تحت حكم « إيطاليا » .

ولكي يقف القارئ على بعض المعلومات التاريخية الضرورية ، فإننا نقدم التلخيص التالي :

كانت مدينة « يانيا » تحت حكم عائلة « توكو » Tocco الإيطالية وعندما مات « كارلو توكو الثاني » عام ١٤٣٠م ، ولي الحكم بعده ابن أخيه « كارلو توكو الأول » ، ولكن أبناء « توكو الأول » غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم ، فبدأ عهد من الاضطراب والفوضى ، والقتال عانى من الشعب الأمرين ، وعندما سمعوا بأن

---

(١) أول من فتح « سلانيك » من آل عثمان هو السلطان « مراد الأول » سنة ١٣٧٤م .

السلطان « مراد الثاني » بالقرب منهم في مدينة « سلانيك » قرروا إرسال وفد عنهم .

أمر السلطان مراد رئيس حجابه بالسماح للوفد بالدخول عليه ، ثم قال لرئيس الوفد بواسطة الترجمان :

ـ أهلاً بكم ... ماذا أتى بكم إلى هنا ؟ وماذا تبغون ؟

قال رئيس الوفد :

ـ أيها السلطان العظيم : جئنا نلتمس منكم العون ، فلا تخيب رجاءنا .

ـ وكيف أستطيع معاونتكم ؟

ـ يا مولاي : إن أمراءنا يظلموننا ، ويستخدموننا كالعبيد ، ويغتصبون أموالنا ثم يسوقوننا للحرب .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل لكم ؟ إن هذه مشكلة بينكم وبين أمرائكم .

ـ نحن أيها السلطان لسنا بمسلمين ، بل نحن نصارى ، ولكننا سمعنا كثيرًا عن عدالة المسلمين ، وأنهم لا يظلمون الرعية ، ولا يُكْرِهُون أحدًا على اعتناق دينهم ، وإن لكل ذي حق حقه لديهم ... لقد سمعنا هذا من السياح ، ومن التجار الذين زاروا مملكتكم ؛ لذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم ، وأن تحكموا بلدنا لتخلصونا من حكامنا الظالمين .

ثم قدموا له مفتاح المدينة الذهبي .

واستجاب السلطان لرجاء أهـل مدينـة « يانيـا » . وأرسـل أحـد قواده على رأس جيش إلى هـذه المدينـة ، وتم فتحهـا فعـلاً في السـنة نفسها ، أي في سنة ١٤٣١م .

هذه ليست قصة خيالية ... ومع أنها قصة غريبة ...

إلا أنها حقيقية وتاريخية .

لقد كان المسلمون رمزًا للعدل والإنصاف .

*****

الولي والسلطان

كان السلطان « مراد الثاني » (١٤٠٣ ـ ١٤٥١م) والد السلطان « محمد الفاتح » يحب الولي « حاجي بيرام » ويحترمه ، ويوقره كثيرًا ؛ ذلك لأنه كان من أكبر زهاد ومتصوفي وعلماء عصره ، وبلغ من حبه وتوقيره له ، أن أصدر أمره بعدم اخذ الضريبة من مريدي هذا الولي الذي كان يسكن في مدينة « أنقرة » التي كانت آنذاك مدينة صغيرة .

ولكن ما أن انتشر هذا الخبر ، (أي خبر إعفاء مريدي « حاجي بيرام » من كل الضرائب) بين أهالي « أنقرة » حتى بدأ الجميع يدعون أنهم من مريدي هذا الولي ، مما أوقع موظفي الضرائب ، وجباتها في حرج وفي حيرة شديدة .

ما العمل ؟ لم يكن من المعقول أن تكون أهالي المدينة كلهم من المريدين ، ولكن كيف يمكن فرز الصادقين عن المدعين الكاذبين ؟ لم يكن هناك إلا حل واحد ، وهو مراجعة السلطان وإحاطته علمًا بالموضوع ، وانتظار ما يأمر به .

طلب كبير محصلي الضرائب المثول بين يدي السلطان ، وعندما اذن له بذلك قال للسلطان :

ـ يا مولاي ... نحن لا نستطيع أن نجبي الضرائب من مدينة « انقرة » .

ـ وما السبب في ذلك ؟ أيمتنعون عن دفعها ؟

ـ كلا يا مولاي ، ولكن أوامركم تقضي بعدم جبايتها من مريدي هذا الولي (حاجي بيرام) .

ـ أجل ... ولكن ما علاقة ذلك بموضوعك ؟

ـ يا مولاي إن أهالي « أنقرة » كلهم يدعون أنهم من مريدي هذا الولي ..

ـ جميع الأهالي ؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ وهل صدقتم ذلك ؟

لم نصدق ذلك يا مولاي ... ولكن كيف نستطيع فرز الصادقين عن غير الصادقين ؟

ـ صحيح ... يصعب ذلك ... ولكني سأكتب إلى « حاجي بيرام » واسأله عن عدد مريديه .

أرسل السلطان « مراد الثاني » رسولاً يحمل رسالة منه إلى الولي « حاجي بيرام » في « أنقرة » .

قرأ « حاجي بيرام » رسالة السلطان ، ثم التفت إلى يمينه إلى أحد المريدين في مجلسه وقال له :

ـ أريد من جميع المريدين أن يجتمعوا الأسبوع المقبل في الميدان الكبير ن وألا يتخلف منهم أحد .

وحدد اليوم وساعة الاجتماع . وقام المريد بمهمة الإبلاغ هذه .

وفي اليوم والمكان المحددين ، اجتمع جميع أهالي « أنقرة » تقريبًا ، ولم يكن في الميدان إلا خيمة كبيرة ، خرج منها الولي « حاجي بيرام » وتوجه إلى الناس المجتمعين ، والمتلهفين لمعرفة سبب هذا الاجتماع وقال لهم :

ـ من كان مريدًا لي ويعدني شيخًا له فليتقدم ، وليدخل إلى هذه الخيمة فإني سأقدمه ضحية في سبيل الله تعالى ، وسأسكب دمه خارج الخيمة .

تقدم إليه شاب من مريديه :

ـ أنا يا شيخي .

أخذ « حاجي بيرام » هذا الشاب ، « وادخله الخيمة » ، وهناك امر بذبح شاة ، وسكب دمها أمام أنظار الناس خارج الخيمة . عقدت الدهشة والذهول ألسنة الناس المجتمعين ، فقد اعتقدوا أن الشاب ذبح وسكب دمه .

ثم خرج الولي من الخيمة ، وكرر طلبه السابق :

ـ هل من متقدم آخر ؟ أريد مريدًا آخر :

ـ أنا يا شيخي .

وكان هذا شاب آخر من أخلص مريديه ، وجرى له ما جرى للأول ... وبدأ الناس ينفضون شيئًا فشيئًا ويتركون الميدان .

ـ هل من مريد آخر ؟

ـ أنا يا شيخي .

قالت له ـ ذلك إحدى النساء المجتمعات .

في المرة الرابعة سكت الجميع ، ولم ينبس أحد ببنت شفة ، ولم يتقدم أحد إذ كانت الأنظار مصوبة إلى بقع الدماء القريبة من خيمة الوليّ .

في اليوم نفسه كتب « حاجي بيرام » رسالة جواب إلى السلطان مراد الثاني قال فيها : إن عدد مريديه في « أنقرة » يبلغ ثلاثة فقط ... رجلان وامرأة واحدة .

*****

معلومات تاريخية
(السلطان محمد الثاني)
الملقب بـ « الفاتح »

والده : السلطان مراد الثاني .

والدته : هُما خاتون .

ولادته : ٢٩ ـ ٣٠ من مارت سنة ١٤٣٢م .

ارتقاؤه العرش : (المرة الأولى) : ١٤٤٤م .

(المرة الثانية) : ١٤٥١م .

وفاته : ٣ من مايس سنة ١٤٨١م .

أراد والده السلطان مراد الثاني التفرغ للعبادة ، فتنازل لابنه « محمد » عن العرش ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، وعندما سمعت الدول الأوروبية هذا النبأ انتعشت آمالهم في طرد المسلمين من أوروبا (لأن الحكم انتقل إلى صبي) فنظموا حملة صليبية كبيرة اشتركت فيها « ألمانيا » و « إيطاليا » و « المجر » و « بولونيا » و « رومانيا » و « تشيكوسلوفاكيا » . فاضطر محمد الثاني إلى استدعاء والده للوقوف أمام هذه الحملة الصليبية ، وقيادة الجيش . فرجع الوالد وتولى قيادة المعركة التي انتصر فيها انتصارًا كبيرًا . وبقي في الحكم حتى وفاته .

أهم أعماله الحربية :

فتح مدينة : « القسطنطينية » (اسطنبول) ؛ لذا لقب بـ (الفاتح) .

فتح : « الصرب » و « أثينا » وامبراطورية « طرابزون » و « مدللي » و « بوصنة » و « قونية » و « آلانيا » وأطراف « سيليفيكا » .

بدأ بالهجوم على أطراف إيطاليا وفتح « أوترانتو » وحاصر « رودس » .

قضى على بعض الإمارات التركية ، وضمها إلى الدولة العثمانية .

*****

الدرويش والسلطان محمد الفاتح

تم تحقيق حلم المسلمين ، وهُزم البيزنطيون وفتحت مدينة « القسطنطينية » أي مدينة « اسطنبول » أو « إسلامبول » واستقبل الأهالي موكب السلطان « محمد الفاتح » ، وهو يدخل المدينة من جهة « طوب قابي » ممتطيًا جواده الأبيض ، يحف به الوزراء والعلماء والقواد والفرسان .

كان الآلاف من أهالي المدينة قد التجؤوا إلى كنيسة « إيا صوفيا » ينتظرون الفرصة الأخيرة للخلاص ، فقد أوهمهم بعض رجال الدين ، بأن ملاكًا سينزل من السماء ويحرق المسلمين ، وأن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إلى كنيسة « إيا صوفيا » ؛ لأن الملاك لن يسمح لهم بتجاوز المنطقة التي تسمى الآن : « جامبرلي طاش » ، وهي لا تبعد إلا مسافة ٣٠٠ متر تقريبًا عن الكنيسة . أما باقي الأهالي ، فقد دفعهم الفضول لرؤية هذا الفاتح الجديد ، فتجمعوا على الطريق الواصل بين « طوب قابي » وكنيسة « إيا صوفيا » .

وفجأة اندفع من بين هذه الجماهير ، درويش من دراويش الجيش العثماني ، وتقدم إلى الأمام وأمسك بعرف جواد السلطان مستوقفًا السلطان ، والموكب كله ، ومخاطبًا السلطان :

ـ لا تنسى أيها السلطان ... لا تنسى أنه بفضل دعائنا نحن الدراويش فتحت هذه المدينة .

ابتسم السلطان « محمد الفاتح » ابتسامة خفيفة ، ثم مد يده على

سيفه وسله من غمده حتى نصفه قائلاً :

ـ صدقت يا درويش ! ... ولكن لا تنسى حق هذا السيف أيضًا .

*****

سنان باشا والسلطان محمد الفاتح

بعد أن تم فتح مدينة « اسطنبول » ، وضع السلطان « محمد الفاتح » تعليمات معينة حول القلاع ، والأسوار المحيطة بالمدينة ، ومن هذه التعليمات ، أوامر مشددة على وجوب سد وغلق جميع أبواب أسوار هذه القلاع بعد أذان المغرب ، وتبقى هذه الأبواب مغلقة حتى أذان الفجر . وعينت مفارز عديدة على هذه القلاع ، لتطبيق هذه الأوامر ، وذلك لدواعي الأمن ، وبذلك كان يمنع أي شخص من دخول المدينة ، أو الخروج منها ضمن هذه الفترة .

كان « سنان جلبي باشا » على رأس إحدى هذه المفارز في القلعة الموجودة في منطقة « أون قباني » .

في أحد الأيام ، كان السلطان « محمد الفاتح » مع كوكبة من حرسه خارج أسوار مدينة « اسطنبول » ، وتأخر في الرجوع إلى المدينة ، إذ عندما وصل إلى باب السور في منطقة « أون قباني » رأى أن الباب مغلق ، إذ كان أذان المغرب قد أذن قبل مدة .

صارح أحد حراس السلطان :

ـ سنان باشا ... سنان باشا ... افتح الباب .

قام « سنان باشا » من مكانه ، وتطلع إلى تحت ... لم يستطع أن يتعرف على أحد ، فقد كان الظلام مخيمًا ... نزل إلى تحت وصاح من خلف باب السور :

ـ من انتم ؟

قال السلطان « محمد الفاتح » :

ـ افتح الباب « يا سنان جلبي » .

ـ من أنتم ؟ ولماذا تأخرتم حتى الآن ؟

لم يستطع أن يميز صوت السلطان ، ولم يكن السلطان يعلن عن هويته .

قال السلطان :

ـ لا تسأل من نحن ... افتح الباب .

احتد « سنان باشا » :

ـ كيف لا أسألكم ؟ ألم تسمعوا بأمر السلطان ؟ كيف أستطيع أن أفتح باب القلعة في هذه الساعة المتأخرة ؟ اذهبوا من هنا ، أو انتظروا حتى أذان الفجر ... لا أستطيع مخالفة أمر السلطان ، أم تريدون أن أسمع منه تقريعًا بسببكم ؟

ضحك السلطان :

ـ كلا « يا سنان جلبي » ... لن تسمع تقريعًا من السلطان ... إنني أتكفل بهذا لك .

ـ لكن من أنت حتى تستطيع أن تكفلني لدى السلطان ؟ أم تحسب نفسك سلطانًا ؟

ـ أنا السلطان يا « سنان جلبي » ... ألم تعرفني ؟

فوجئ « سنان باشا » عند سماعه هذا ، وأسرع بفتح الباب وهو يدمدم :

ـ اعذرني يا مولاي ... لم أعرفكم ... ولم أكن أتوقع أن تخالفوا التعليمات التي وضعتموها بأنفسكم يا مولاي .

دخل السلطان من باب السور، ثم ترجل عن جواده وضع يده على كتف « سنان باشا » وقال له :

ـ أنت عسكري جيد يا « سنان باشا » ... لقد سررت جدًا من التزامك بتعليماتي ؛ لذا فتمن مني ما تشاء .

ذُهل « سنان باشا » من كلام السلطان ، فها هي كل الأبواب مفتوحة أمامه . يستطيع أن يطلب أي مبلغ ، أو أي منصب ... كان السلطان ينظر إليه مبتسمًا ، منتظرًا الجواب منه ... لم يتردد « سنان باشا » طويلاً ... كلا لن يطلب من السلطان لا مالاً ولا جاهًا ... سيطلب منه تحقيق أمله الذي كان يحلم به منذ سنوات :

ـ ابن لي يا سلطاني جامعًا باسمي ... لا أريد منك شيئًا آخر ... جامعًا باسمي .

قبل السلطان هذا الرجاء ، وأمر ببناء جامع باسمه .

فإذا قدر لك أن تزور « اسطنبول » فاسأل عن « جامع سنان باشا » ، وزر هذا الجامع التاريخي الجميل ، فقد عرفت قصة بنائه ، وبعد انتهاء صلاتك ، ادع لروح « سنان باشا » .

*****

السلطان « محمد الفاتح »
وأستاذه الشيخ « آق شمس الدين »

كان السلطان « محمد الفاتح » يُكن لأستاذه الشيخ « آق شمس الدين » مشاعر الحب ، والإجلال ، والتوقير ، ويزوره على الدوام ، حيث يستمع لأحاديثه ونصائحه ، ويستفيد من علمه الغزير .

وكان أستاذه هذا مهيبًا لا يخشى سوى الله ؛ لذا فإنه عند قدوم السلطان « محمد الفاتح » لزيارته ، لا يقوم له من مجلسه ، ولا يقف له . أما عند زيارته للسلطان « محمد الفاتح » فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيرًا له ، واحترامًا ويجلسه بجانبه .

وقد لا حظ ذلك وزراء السلطان وحاشيته ؛ لذا لم يملك الصدر الأعظم « محمود باشا » من إبداء دهشته للسلطان فقال له :

(لا أدري يا سلطاني العظيم ، لِمَ تقوم للشيخ « آق شمس الدين » عند زيارته لك ، من دون سائر العلماء والشيوخ ، في الوقت الذي لا يقوم لك تعظيمًا عند زيارتك له ؟ !) .

فأجابه السلطان : (أنا أيضًا لا أدري السبب ... ولكني عندما أراه مقبلاً عليّ ، لا أملك نفسي من القيام له .. أما سائر العلماء والشيوخ ، فإني أراهم يرتجفون من حضوري ، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معي ، في الوقت الذي أجد نفسي أتلعثم عند محادثتي الشيخ « آق شمس الدين » .

عدالة القضاء

أمر السلطان « محمد الفاتح » ببناء أحد الجوامع في مدينة « اسطنبول » ، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه « إسبلانتي » بالإشراف على بناء هذا الجامع ، إذ كان هذا الرومي معماريًا بارعًا .
وكان من بين أوامر السلطان : أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر ، وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة ليبدو الجامع فخمًا ، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري .

ولكن هذا المعماري الرومي ـ لسبب من الأسباب ـ أمر بقص هذه الأعمدة ، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان ، أو يستشيره في ذلك ، وعندما سمع السلطان « محمد الفاتح » بذلك ، استشاط غضبًا ، إذ أن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد ، لم تعد ذات فائدة في نظره ، وفي ثورة غضبه هذه ، أمر بقطع يد هذا المعماري . ومع أنه ندم على ذلك إلا أنه كان ندمًا بعد فوات الأوان .

ولم يسكت هذا المعماري عن الظلم الذي لحقه ، بل راجع قاضي اسطنبول الشيخ « صاري خضر جلبي » الذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر في جميع أنحاء الامبراطورية ، واشتكى إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان « محمد الفاتح » .

لم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوى ، بل أرسل من فوره رسولاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة ؛ لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا .

ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي ، فالحق والعدل يجب أن يكونا فوق كل سلطان .

وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلى المحكمة ، وتوجه للجلوس على المقعد قال له القاضي :

لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف بجانب خصمك .

وقف السلطان « محمد الفاتح » بجانب خصمه الرومي ، الذي شرح مظلمته للقاضي ، وعندما جاء دور السلطان في الكلام ، أيد ما قاله الرومي . وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي ، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلاً :

ـ حسب الأوامر الشرعية ، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا لك !!

ذُهل المعماري الرومي ، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي ، والذي ما كان يدور بخلده ، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد ، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي . أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان « محمد الفاتح » ، فاتح « القسطنطينية » الذي كانت أوربا كلها ترتجف منه رعبًا ، فكان أمرًا وراء الخيال ... وبصوت ذاهل ، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي ، بأنه يتنازل عن دعواه ، وأن ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط ؛ لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئًا ، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية ، لكل يوم طوال حياته ، تعويضًا

له عن الضرر البالغ الذي لحق به .

ولكن السلطان « محمد الفاتح » قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية عن كل يوم تعبيرًا عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص ، وتعبيرًا عن ندمه كذلك .

*****

معلومات تاريخية
(السلطان بايزيد الثاني)

والده : السلطان « محمد الفاتح » .

والدته : ست مكرمة خاتون .

ولادته : ٣ من كانون الأول سنة ١٤٤٧ .

ارتقاؤه العرش : ٢١من مايس سنة ١٤٨١ م .

تركه الحكم لابنه « سليم » : ٢٤ من نيسان سنة ١٥١٢ م .

وفاته : ٢٦ من مايس سنة ١٥١٢ م .

الحملات التي قادها : الحملة على « موارفا » حيث ألحق بها « هرسك » للدولة العثمانية ، الحملة على « بوغدان » . ومع أنه انتصر في معاركه في هذه الحملة ، إلا أن الوباء تفشى في جنده فاضطر إلى الرجوع .

حملات مختلفة استولى فيها على قلاع ، وحصون عديدة أهمها : حصون « فيلبا » و « أقرمان » و « كيليا » .

والحملة على « المجر » ومحاصرة « بلغراد » ، والحملة على « اليونان » وفتح « عينابخت » و « مردون » و « كورون » ، وفي عهد تمت فتوحات أخرى ، إلا أنها كانت قليلة بالنسبة لفتوحات أسلافه ،

فقد تم فتح « بوصنة » وقلعة « لوفجا » و « بروسجا » و « إناباخت » ، كما تم إحراز انتصارات في معارك بحرية أهمها معركة « سابينيزا » ، وحصار « مدللي » .

ويرجع المؤرخون ركود الفتح في دوره إلى كون السلطان « بايزيد الثاني » رجل علم ودين ، وتصوف أكثر من كونه فارسًا وفاتحًا .

*****

قصتان حول السلطان بايزيد الثاني

يُعدُّ جامع « بايزيد » من أكبر وأفخم وأجمل الجوامع الموجودة في « اسطنبول » والساحة القريبة . أخذت اسمها منه فهي « ساحة بايزيد » وتقع جامعة اسطنبول بالقرب من هذا الجامع .

بانيْ هذا الجامع هو : السلطان « بايزيد الثاني » (١٤٧٧م - ١٥١٢م) ابن السلطان « محمد الفاتح » ، وهو والد السلطان « سليم الأول » الملقب بـ « ياووز » أي هو جد السلطان سليمان القانوني .

كان هذا السلطان تقيًا ورعًا ، والقصتان التاليتان تشيران إلى ذلك :

١ـ أول صلاة في جامع « بايزيد » :

عندما أكمل بناء جامع بايزيد وتم فرشه ، جاء يوم افتتاحه بالصلاة فيه ، ولكن من سيقوم بإمامة المصلين في هذه الصلاة ؟ أيؤم الناس الإمام المعين لهذا الجامع ؟ أم شيخ الإسلام ؟ أم أحد العلماء المعروفين ؟ لم يكن أحد يعلم ذلك ، وكان الجميع في انتظار من يتقدم إلى الإمامة .

عندما اصطفت الصفوف وقف إمام الجامع وتوجه إلى المصلين قائلًا لهم : ليتقدم للإمامة من لم يضطر طوال حياته لقضاء صلاة فرض ، أي : من صلى صلوات الفرض في أوقاتها طوال حياته .

دهش الحاضرون من هذا الشرط ، وبدأ بعضهم يتطلع لبعض ، وبعد انتظار دقيقة ، أو دقيقتين شاهد المصلون السلطان « بايزيد الثاني » وهو يتقدم للإمامة بكل هدوء ، ثم يكبر لصلاة الجماعة بكل خشوع . أجل ... كان السلطان هو الشخص الوحيد من بين الحاضرين الذي لم تفته أبدًا صلاة من صلوات الفرض ، ثم يكبر لصلاة من صلوات الفرض ؛ لذا لقبه الشّعب بـ « السلطان الوليّ » .

٢ـ غبار الجهاد في سبيل الله :

كان من عادة السلطان « بايزيد الثاني » أن يجمع في قارورة ما علق بثيابه من غبار ، وهو راجع من أية غزوة من غزوات جهاده في سبيل الله .

وفي إحدى المرات عندما كان السلطان يقوم بجمع هذا الغبار من على ملابسه لوضعه في القارورة ، قالت له زوجته « كولبهار » : ارجو أن تسمح لي يا مولاي بسؤال .

اسألي يا « كولبهار » .

لِمَ تفعل هذا يا مولاي ؟ وما فائدة هذا الغبار الذي تجمعه في هذه القارورة ؟

إنني سأوصي يا « كولبهار » بعمل طابوقة من هذا الغبار ، وأن توضع تحت رأسي في قبري عند وفاتي ... ألا تعلمين يا « كولبهار » أن الله سيصون من النار يوم القيامة جسد من جاهد في سبيله ؟

ونفذت فعلًا وصيته ، إذ عمل من هذا الغبار المتجمع في تلك

القارورة ... غبار الجهاد في سبيل الله ... عمل منه طابوقة ، وضعت تحت رأس هذا السلطان الورع عندما توفي سنة ١٥١٢م ... وقبره موجود حتى الآن بجانب الجامع الذي بناه (جامع بايزيد) .

رحمه الله تعالى .

*****

معلومات تاريخية
(السلطان سليم الأول)
الملقب بـ « ياووز »

والده : السلطان « بايزيد الثاني » .

والدته : كولبهار خاتون .

ولادته : ١٠ من تشرين الأول سنة ١٤٧٠م .

ارتقاؤه العرش : ٢٤من نيسان سنة ١٥١٢م .

وفاته : ٢١ ـ ٢٢من أيلول سنة ١٥٢٠م .

أهم أعماله الحربية : الحملة على « إيران » وانتصاره على « الصفويين » . الحملة على بعض الإمارات التركية ، وضمها إلى الدولة العثمانية ، الاستيلاء على أعداد كبيرة من القلاع والحصون . الحملة على مصر ، وانتصاره في معركة « مرج دابق » فتح مصر وسوريا وفلسطين ، وإلحاق الحجاز بالدولة العثمانية . فتح شرقي الأناضول وماردين ، وشمالي العراق . وهو أول خليفة في خلافة آل عثمان .

*****

السلطان وشيخ الإسلام

علم السلطان « سليم الأول » أن الأقليات غير المسلمة الموجودة في « اسطنبول » من الأرمن والروم واليهود ، بدأت تتسبب في بعض المشاكل للدولة العثمانية ، وفي إثارة بعض القلاقل ، فغضب لذلك غضبًا شديدًا ، وأعطى قراره بأن على هذه الأقليات غير المسلمة اعتناق الدين الإسلامي ، ومن يرفض ذلك ضُرب عنقه .

وبلغ هذا الخبر شيخ الإسلام « زمبيلي علي جمالي أفندي » ، وكان من كبار علماء عصره ، فساءه ذلك جدًا ؛ وذلك لأن إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام يخالف تعاليم الإسلام ، الذي يرفع شعار ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة:٢٥٦] . ولا يجوز أن يخالف أحد هذه القاعدة الشرعية ، وإن كان السلطان نفسه .

ولكن من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان ، الذي يرتجف أمامه الجميع ؟ من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان ، ذي الطبع الحاد فيبلغه بأن ما يفعله ليس صحيحًا ، وأنه لا يوافق الدين الإسلامي ، ويُعد حرامًا في شرعه ؟

ليس أحد سواه من يستطيع ذلك ، فهو الذي يشغل منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، وعليه تقع مهمة إزالة هذا المنكر الذي يوشك أن يقع .

لبس جبته وتوجه إلى قصر السلطان ، واستأذن في الدخول عليه ،

فأذن له فقال للسلطان :

سمعت أيها السلطان ، أنك تريد أن تُكْرِه جميع الأقليات غير المسلمة على اعتناق الدين الإسلامي .

كان السلطان لا يزال محتدًا فقال :

ـ أجل ... عن ما سمعته صحيح ... وماذا في ذلك ؟

لم يكن شيخ الإسلام من الذين يترددون عن قوله الحق :

أيها السلطان إن هذا مخالف للشرع ، إذ لا إكراه في الدين ، ثم إن جدكم « محمد الفاتح » عندما فتح مدينة « اسطنبول » اتبع الشرع الإسلامي فلم يكره أحدًا على اعتناق الإسلام ، بل أعطى للجميع حرية العقيدة ، فعليك بإتباع الشرع الحنيف ، وإتباع عهد جدكم « محمد الفاتح » . قال السلطان سليم وحدته تتصاعد :

ـ يا علي أفندي .... يا علي أفندي : لقد بدأت تتدخل في أمور الدولة ... ألا تخبرني إلى متى سينتهي تدخلك هذا ؟

ـ إنني أيها السلطان أقوم بوظيفتي في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وليس لي من غرض آخر ، وإذا لم ينته أجلي ، فلن يستطيع احد أن يسلبني روحي .

ـ دع هذه الأمور لي يا شيخ الإسلام .

ـ كلا أيها السلطان ... إن من واجبي أن أرعى شؤون آخرتك أيضًا ، وأن أجنبك كل ما يفسد حياتك الأخروية ، وإن اضطررت إلى سلوك طريق آخر .

ـ ماذا تعني ؟

ـ سأضطر إلى إصدار فتوى بخلعك أيها السلطان ؛ بسبب مخالفتك للشرع الحنيف إن أقدمت على هذا الأمر .

وأذعن السلطان « سليم » لرغبة شيخ الإسلام ، فقد كان يحترم العلماء ، ويجلهم ، وبقيت الأقليات غير المسلمة حرة في عقائدها ، وفي عباداتها ، وفي محاكمها ، ولم يمد أحد أصبع سوء إليهم .

*****

السلطان « سليم »
والعالم الديني « ابن الكمال »

كان السلطان « سليم الأول » راجعًا مع جيشه من مصر إلى « اسطنبول » بعد أن دانت له مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أصبح أول خليفة في آل عثمان ، وكان يسير في المقدمة على صهوة جواده الأصيل ، وهو يتسامر مع « ابن الكمال » ، وكان من كبار علماء عصره ، يتبعهما الوزراء والقواد .

وبينما هما يتسامران إذا بفرس العالم « ابن الكمال » يجفل ، ويضرب برجليه الأرض المغطاة بالوحل ، فتتناثر الوحل على قفطان السلطان على شكل بقع كبيرة .

اصفر وجه « ابن الكمال » فقد أيقن بالهلاك ، وهلعت قلوب الوزراء والقواد ، فقد توقعوا أن يطيح السيف برأس العالم ، ولكن السلطان خلع بكل هدوء قفطانه الملوث بالوحل ، ودعا بقفطان آخر قائلًا « لابن الكمال » :

ـ إن هذا القفطان ، الذي تلوث بوحل متناثر ، من رجل فرس عالم كبير مثلك سيكون من أثمن الأشياء عندي ، وأنا أوصي بالاحتفاظ به ووضعه على « تابوتي » في أثناء تشييعي للقبر عند وفاتي .

وحققوا وصيته عند وفاته ... فقد وضعوا على « تابوته » هذا القفطان الملوث بآثار الوحل ، وشيعوه هكذا حتى قبره .

*****

السلطان سليم
في جامع دمشق

دخل السلطان « سليم الأول » (١٤٧٠ـ ١٥٢٠م) إلى أكبر جامع في دمشق ؛ لأداء صلاة الجمعة .. كانت هذه أول صلاة جمعة له يصليها في دمشق بعد فتحه في (٢٧من أيلول سنة ١٥١٦م) .

كان في الصف الأول قرب المحراب وعن يمينه وشماله وزراؤه ، وقواده ووجهاء دمشق وعلماؤه . وبعد أن قرئ القرآن ، وصليت النوافل ، صعد الخطيب إلى المنبر ، وكانت هذه أول خطبة يذكر فيها اسم ، السلطان « سليم » ، ولكن الخطيب عندما وصل إلى الدعاء التالي : (اللهم انصر السلطان « سليم » ، سلطان البر ، وحاكم الحرمين) [1] .

ـ عند ذلك رفع السلطان « سليم » رأسه ، وقال مخاطبًا خطيب الجامع :

ـ لست حاكم الحرمين ... بل أنا خادم الحرمين ... غير خطبتك

(١) كانت الحجاز آنذاك تابعًا لمصر ، وعندما فتح السلطان « سليم » مصر في (٢٤من آب سنة ١٥١٦م) أصبح الحجاز تابعًا له ، وأرسل شريف مكة آنذاك (بركات) ابنه إلى السلطان سليم ، وهو في مصر حاملًا إليه مفاتيح مكة ، والمدينة ، وكذلك الأمانات المقدسة : وهي الآن محفوظة في متحف « طوب قابي » في « اسطنبول » .

على هذا الأساس .

وأعاد الخطيب الدعاء ، ولكن بالصيغة التي رغب فيها السلطان « سليم » .

*****

السلطان سليم
يدخل اسطنبول متخفيًا

حكم السلطان « سليم الأول » الملقب بـ « ياووز » [١] ، (١٤٧٠ ـ ١٥٢٠ م) ثماني سنوات فقط (١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) ، ولكنه حقق في هذه السنوات الثمانية من الأعمال ما لا تسعها أضعاف هذه السنوات .

عندما رجع هذا السلطان من حملته المشهورة على مصر ، والتي ألحق فيها للدولة العثمانية سورية ، وفلسطين ، وشمالي العراق ، والحجاز ومصر ، واستلم فيها الخلافة أيضًا ... عندما رجع متوجهًا إلى عاصمته « اسطنبول » واقترب منها ، علم أن أهالي « اسطنبول » سمعوا بقدومه ، وأنه أصبح على مقربة من العاصمة ؛ لذا فإنهم يخرجون كل يوم ويملأون الشوارع انتظارًا لقدومه ، ولرؤيته وللاحتفال به ، والهتاف لحياته بعد أن تكللت حملته بهذه السلسلة الباهرة من الانتصارات .

ضاق صدر السلطان بما سمع ، فأمر الجيش أن يعسكر في القسم الآسيوي ، وألا يدخل إلى مدينة « اسطنبول » (حيث كانت في القسم الأوربي) [٢] حتى إصدار أمره بذلك .

---

(١) يأتي « ياووز » في معانٍ عديدة : الصلب ، القاسي ، الأفضل من غيره ، المتفوق .
(٢) أما الآن فإن مدينة « اسطنبول » تمتد في الجانبين : الجانب الأوروبي ، والجانب الآسيوي على طرفي مضيق « البسفور » .

احتار الوزراء والقواد والجنود ، ولم يعرفوا سبب هذا الأمر والداعي إليه ، ولم يجد أحد في نفسه الجرأة لسؤال السلطان عن معنى ، ومغزى هذا الأمر ، الذي نفذوه فورًا ، فهم في النهار ، وليس أمامهم للوصول إلى « اسطنبول » إلا ساعة ، أو ساعتين فَلِمَ هذا التأخير ، والجميع في شوق إلى بيته وإلى أولاده وزوجته ؟ ولم هذا التأخير وأهالي « اسطنبول » تنتظر قدوم السلطان على أحر من الجمر ، وقد احتشدت في الشوارع والساحات للاحتفال به ، وبجيشه المنتصر وللهتاف بحياته ، والدعاء له .

انتظر الجيش والقواد على مضض ، والكل يأمل أن يغير السلطان رأيه فيسمح لهم بدخول « اسطنبول » ... ولكن الساعات مضت ، وبدأت الشمس تميل للغروب ، وليس هناك من إشارة إلى تبديل رأي السلطان ... ولكن من يستطيع أن يكلم السلطان ؟ تشاور الوزراء والقواد حول هذا الأمر ، فلم يجدوا أفضل من العالم « ابن الكمال » ، الذي كان السلطان يحترمه ، ويوقره جدًا ويحبه .

كلموا « ابن الكمال » فقبل ذلك ، وأخذ على عاتقه مراجعة السلطان في الأمر ، استأذن « ابن الكمال » في الدخول على السلطان ، فأذن له . ولما مثل بين يديه قال للسلطان :

ـ عندي ما أقوله لكم أيها السلطان .

ـ هات ما عندك يا « ابن الكمال » .

ـ إن جنودك يا ـ مولاي ـ في حيرة ، وهم يتساءلون : لماذا لا يدخل السلطان إلى « اسطنبول » ؟ مع أن أهاليها ينتظرونه هناك في

شوق ؛ لكي يهتفوا بحياته ويحتفلوا بقدومه ، وبقدوم جيشه المنتصر .

فأجابه السلطان « سليم » هذا الجواب الرائع الذي حفظه التاريخ :

ـ ألم تعرفني بعد يا « ابن الكمال » ؟ إننا لم نحارب من أجل الشهرة والمجد ، أو من أجل الحصول على الهتاف بحياتي ... لم نحارب إلا في سبيل الله تعالى ومن أجل الحصول على رضاه .

وعندما أقبل المساء أمر الجيش بدخول المدينة وركب السلطان زورقًا مع بعض حراسه ، ودخل المدينة ، وتوجه إلى قصره دون أن يعلم أحد من أهالي « اسطنبول » بقدومه .

*****

السلطان سليم على فراش الموت

اليوم هو الثلاثاء المصادف ١٧ من تموز سنة ١٥٢٠ م ، أي : غداة حملة السلطان « سليم الأول » على « إدرنة » ... كان السلطان يتمشى في حديقة قصره مع نديمه المخلص « حسن جان » ... بعد ساعة من المشي والمسامرة التفت السلطان إلى نديمه قائلاً :

ـ إنني أحس وكأن سفودًا محميًا يحرق ما بين كتفي ... ألا ترى ما الأمر يا « حسن » ؟

اقترب النديم من السلطان الذي كشف له ما بين كتفيه ... كانت هناك حبة حمراء صغيرة ، وعندما فحصها بإصبعه ، وجدها صلبة فقال :

ـ أرى يا مولاي أن تعرض نفسك على طبيبك ؛ ليضع على هذه الحبة دهنًا من الدهون التي يستعملونها للجروح ، ولمثل هذه الأمور .

ولكن السلطان لم يقبل ذلك قائلاً :

ـ أمن أجل هذه الحبة الصغيرة أعرض نفسي على الطبيب ؟ أحسبتني شابًا ناعمًا لكي أفعل هذا ؟ ستزول الحبة من نفسها .

ولم يستطع نديمه أن يلح أكثر .

ولكن السلطان « سليم » لم يستطع أن يغمض عينيه في تلك

الليلة ، فقد زاد ألمه حتى أصبح نارًا ملتهبة بين كتفيه .

وما أن صلى صلاة الصبح ، حتى أمر بتهيئة حمام حار له ، وعندما دخل الحمام ، استدعى الدلاك ، وأمره بعصر تلك الحبة الحمراء ، التي كانت قد كبرت وانتفخت وأصبحت دملة كبيرة ... كانت هذه الدملة من النوع الذي يطلق عليه الأتراك اسم « شيربنجه » [١] وهي : دملة قاتلة لم يكن الطب آنذاك قادرًا على علاجها .

ولكنه تحامل على نفسه ، وعلى آلامه ، وتهيأ للسفر على رأس جيشه إلى « إدرنة » ولم يستمع لرجاء مقربيه بتأجيل هذه الحملة أو تعيين احد القواد لقيادتها بدلاً عنه ، إذ قال :

ـ لقد أعطينا وعدًا ، ولسنا من الذين يتراجعون عن وعودهم .

وسارت الحملة في ١٨ من تموز سنة ١٥٢٠ م متوجهة نحو « إدرنة » والسلطان « سليم » على رأسها ، وهو يقاسي الآلام المبرحة .

تضاعفت آلامه في الطريق حتى أصبحت لا تطاق ، وعندما وصل الجيش إلى وادي « أوغراش » لم يعد السلطان قادرًا على البقاء على ظهر فرسه ، فأمر بالتوقف وضربت الخيام هناك . وتمدد السلطان على فراش المرض في خيمته ، كان الألم في تزايد مستمر ، حتى أصبح ألمًا كاويًا فظيعًا ... لم يكن السلطان يتأوه أو يبكي ، ولكن آلامه الفظيعة كانت تطل من عينيه وتقرأ من عينيه ، والتفت

---

(١) وهي إحدى الدمامل الدموية ، تحدثها عادة جرثومة « رستافيلوك » .

إلى نديمه « حسن جان » قائلاً : ألا ترى يا « حسن » حالنا هذه ؟ ... انظر فإننا نكاد أن نبكي من الألم كطفل صغير .

فقال له نديمه المخلص وهو يحاول ألا تطفر الدموع من عينيه :

ـ استرح يا مولاي ... استرح ، وسيقوم الأطباء بعمل اللازم إن شاء الله .

ـ أنا أعلم يا « حسن » أن علاج الموت هو الموت نفسه [1] .

ولم يغادر السلطان « سليم » هذا الفراش بعد ذلك سليمًا ... مرت الأيام والأسابيع والآلام تتزايد عليه ، حتى شملت كل جسده ، وبدأت الآلام المبرحة تنحز في مفاصله ، والأطباء عاجزون عن تقديم أي عون له . وعلم أن نهايته قربت ، فأرسل رسولاً يستدعي الصدر الأعظم « بيري محمد باشا » ، والوزير « مصطفى باشا » و « أحمد أرناؤوط باشا » .

بعد خلو خيمة السلطان إلا منه ومن نديمه « حسن » قال السلطان لنديمه بابتسامة حزينة :

ما هذه الحال يا « حسن » ؟

ـ إنه الزمن الذي يجب أن يكون الإنسان فيه مع الله يا سلطاني .

قطب السلطان حاجبيه وقال :

ـ ومع من كنا حتى الآن ؟ ... مع من كنت تحسبنا يا « حسن » ؟

---

(١) كان السلطان « سليم » يقصد : أن الإنسان عندما يموت مرة ، فلن يموت بعده أبدًا .

لم يجب النديم ، بل جلس يبكي في ركن من الخيمة ، حتى شعر بالصدر الأعظم « بيري محمد باشا » وهو يدخل الخيمة .

قال السلطان بصوت واهٍ للصدر الأعظم :

ـ أرجو المعذرة لأنني لم أستطع ـ بسببِ مرضي ـ من استقبالكم واقفاً .

أكب الصدر الأعظم على يد السلطان يقبلهما ، وقال والدموع تملأ عينيه :

ـ ستشفى يا سلطاني إن شاء الله .

ـ كلا يا محمد ... يكفي هذا ... إنني أحس بضعف شديد ... لقد تعبت من هذه الآلام ... نريد أن تنتهي هذه الآلام ، وإن كانت نهايتها بالموت ... سيكون ابني « سليمان » سلطاناً بعدي ، فأظهروا له الإخلاص الذي أظهرتموه لي ، ثم أدار عينيه يبحث عن نديمه « حسن » .

ـ أين « حسن جان » ؟

أسرع إليه حسن :

نعم يا مولاي ... إنني هنا بقربكم .

ـ اقرأ يا حسن سورة « يس » .

جثا حسن على ركبتيه قرب فراش السلطان ، وبدأ يقرأ سورة « يس » ، والدموع تسيل على خده ، حتى أتم السورة ، ونظر ـ من خلال دموعه ـ إلى السلطان فرآه يشير إليه بيده أن يعيد قراءتها ،

فبدأ يعيد قراءة السورة ، وعندما وصل إلى الآية ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أخذ السلطان نفسًا عميقًا ... توقف « حسن » عن القراءة ، ونظر إلى السلطان ، فإذا هو قد جاد بنفسه ، فتناول يده وبكى هو ، والصدر الأعظم :

ـ آه يا مولاي ... ليرحمك الله يا سلطاني .

كان ذلك في الليلة التي تصل الجمعة بالسبت المصادف ليوم ٢١ ـ ٢٢ من أيلول سنة ١٥٢٠ م .

*****

معلومات تاريخية

(السلطان سليم القانوني)

والده : السلطان « سليم الأول » .

والدته : حفصة خاتون .

ولادته : ٢٧ من نيسان سنة ١٤٩٥ م .

ارتقاؤه العرش : ٣٠ من أيلول سنة ١٥٢٠ م .

وفاته : ٦ ـ ٧ من أيلول سنة ١٥٦٦ م .

تسلم امبراطورية مساحتها ٧,٥ مليون كم٢ تقريبًا ، فوسعها بفتوحاته إلى ما يقارب ١٣ مليون كم٢ ، أي أنه ضاعف مساحة امبراطوريته تقريبًا . قاد جيشه في حملات بلغ عددها ثلاث عشرة حملة ، وفي حملته الأخيرة (وكان عمره ٧١ عامًا) ، على قلعة « زيكاتوار » مرض ، ثم توفى في اليوم الأخير من الحملة ، أي غداة سقوط هذه القلعة .

من فتوحاته : بلغراد ، جزيرة رودس ، المجر ، بغداد ، وان ، كورومو ، بوغدان ، أجزاء في إيران ، وأجزاء من شمالي أفريقيا .

*****

الأمير سليمان ومعلمه

ولد السلطان سليمان القانوني في يوم الاثنين المصادف ٢٧ من نيسان سنة ١٤٩٥ م في مدينة « طرابزون » .... ولده هو السلطان « سليم الأول » ووالدته هي : « حفصة خاتون » تلقى تربيته الأولى على يد والدته ، وعلى يد جدته ـ أم والده ـ (جُلبهار ـ خاتون) ، وعندما بلغ السابعة من عمره ، أخذته والدته إلى جده السلطان « بايزيد الثاني » في « اسطنبول » ؛ لتتم تربيته وتنشئته هناك ، فعينوا له العالم « خير الدين خضر أفندي » لهذه المهمة ، فدرس عليه العلوم الإسلامية والتاريخ والأدب ، كما بدأ بتعلم الفروسية ، فنون القتال .

ولكن كان عادة آل عثمان ، أن يتعلم كل أمير صنعة يدوية كذلك ، فاختير للأمير « سليمان » صنعة صياغة الذهب ، وعين له أحد الماهرين في هذه الصنعة لتعليمه .

ولكن الأمير لم يكن يحب هذه الصنعة ، بل كان يميل إلى دروس التاريخ ، وإلى ركوب الفرس ، فكان يهمل هذه الصنعة ، ولا يلتفت إليها ، وكان معلمه يضيق صدرًا من إهمال الأمير ، ويخشى أن يلام هو ، أو أن يُعاقَب إن لم يتقن الأمير هذه الصنعة ، وفي يوم من الأيام غضب عليه المعلم ، وحلف أن يضربه بالعصا ألف ضربة على رجليه ، إن لم يهتم بتعلم هذه الصنعة ، وبقي على عناده .

وعندما لم ينفع هذا التهديد أيضا سقط في يد معلمه ، إذ لم يكن

في وسعه أن يضرب الأمير ألف ضربة عصا . كما أن الأمير غضب على معلمه ، وخاف منه ، فأسرع إلى والدته يستجير بها ، ويطلب منها تبديل هذا المعلم قائلاً لها :

ـ لقد حلف أن يضربني ألف عصا ... قولي لجدي السلطان أن يبدله فأنا لا أحبه .

كانت « حفصة خاتون » امرأة عاقلة ، تعرف قدر المعلمين ، فاستدعت إليها المعلم ، ورجت منه أن يصفح عن ابنها ، وأعطت له العشرات من الليرات الذهبية .

خرج المعلم من عندها واستدعى إليه الأمير ، وأمره أن يجلس ، فجلس فوضع في حجره تلك الليرات الذهبية ، وقال له :

ـ أريد منك أن تذيب هذه الليرات الذهبية ، وأن تعمل منها خمسمائة عود دقيق جدًا ؛ ذلك لأن المعلم خطرت له قصة أيوب ـ عليه السلام ـ فرأى فيها حلاً للوفاء بقسمه .

نفذ الأمير طلب معلمه ، وناوله في اليوم التالي الأعواد الذهبية فجعلها المعلم حزمة واحدة ، ثم قال للأمير :

ـ سأوفي بقسمي ، فإنك لا تزال مهملاً ... نم على ظهرك ، وناولني قدميك . اتسعت عينا الأمير الصغير من الخوف ، ولكنه نفذ ما طلبه المعلم الذي ضرب أخمص قدميه بهذه الحزمة ، ضربتين خفيفتين .

وهكذا وَفَّى المعلم بقسمه ، واستفاد الأمير « سليمان » من هذا

الدرس فاهتم بهذه الصنعة ، حتى قيل : إنه أصبح من أمهر الصياغ آنذاك .

*****

استسلام قلعة رودس

كانت جيوش الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليمان القانوني ، قد طوقت « رودس » . وفي ١٠ / ١٢ / ١٥٢٢ م أرسل السلطان رسلاً إلى قائد فرسان « رودس » ينذره بوجوب الاستسلام ، وأنه إن استسلم هو وفرسانه حقنوا دماءهم ، أما إن رفضوا ، فسيقوم بهدم القلعة على رؤوسهم . وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام لكي يعطوا قرارهم ، ويعلنوا استسلامهم .

انقسم فرسان « رودس » إلى فريقين أمام إنذار السلطان ، فريق يرى انتهاز هذه الفرصة والاستفادة من العفو السلطاني ، بعد أن ضعف الأمل في قدرتهم على الصمود ، وفريق يرفض الاستسلام مع أنهم يعرفون جيدًا عدم قدرتهم على الوقوف طويلاً أما جيش السلطان إذ كانوا يقولون :

ـ ماذا لو عاملنا السلطان « سليمان » بنفس معاملتنا للمسلمين ؟ سيقوم السلطان دون شك بالانتقام منا على المذابح التي أوقعناها بالمسلمين ؛ لذا لا نعتقد بأنه سيوفي بوعده لنا بالعفو ... لذا فالأفضل عدم الاستسلام ، إذ قد تأتينا نجدة من إيطاليا ، أو من غيرها .

وطال النقاش بين الفريقين ، وأخيرًا تغلب هذا الرأي الثاني ، ومرت الأيام الثلاثة وانتهت المهلة .

بدأ الجيش العثماني بهجوم عنيف ، وبدأت مدافعها تَصُبُّ قذائفها على القلعة ، وبدأت فجوات كبيرة تظهر على جدران القلعة ، ثم تهدمت جوانب في بعض الجدران ... أصبح من الواضح أن القلعة لن تصمد طويلاً أمام المسلمين ، وإن الجيش العثماني سيقوم بمهاجمة القلعة بجنوده ، وسيدخلونها من هذه الجدران المهدمة ، وأمام هذا الموقف الخطير ، قرر الفرسان إعلان الاستسلام ، فأرسل كبيرهم رسولين إلى الجيش العثماني لإبلاغهم بقرار الاستسلام ، والرجاء منهم الإبقاء على حياتهم .

استقبل الصدر الأعظم « بيري محمد باشا » ومعه القائد العام « أحمد باشا » هذين الرسولين ؛ ليسمعا منهما شروط الاستسلام .

لم يكن القائد العام « أحمد باشا » يؤيد هذا التفاوض ، فقال للصدر الأعظم [1] :

ـ لِمَ التفاوض معهم الآن ؟ إن القلعة على وشك السقوط كما ترى ... ثم ألم نعطهم فرصة الاستسلام من قبل مع العفو عنهم ، ولكنهم رفضوا ، وأرهقونا بهذه المعركة ، حيث استشهد عدد من جنودنا ، ويأتون الآن ومعهم شروط الاستسلام ... كيف يكون هذا ؟

قال الصدر الأعظم :

ـ ولكن شروطهم ليست إلا المحافظة على حياتهم ، وتركهم

---

(١) الصدر الأعظم هو الشخص الثاني بعد السلطان عند العثمانيين ، ويُقَابِل اليوم منصب رئيس الوزراء .

يسافرون إلى الجهة التي يرغبون .

- ولكنهم لم يرحموا المسلمين ... ألا تذكر المذبحة الوحشية التي أوقعوها بالمسلمين ؟

بعد أن طال النقاش بين الصدر الأعظم ، وبين القائد العام قررا الذهاب إلى خيمة السلطان « سليمان القانوني » ؛ لكي يعطي رأيه ويحسم الأمر .

مُثّلا بين يدي السلطان ، وشرح كما منهما رأيه حول الموضوع ... كان السلطان شخصًا رحيمًا ، كما كان معجبًا بالشجاعة ، وبالفروسية أيما إعجاب فقال لهما :

- الحقيقة التي لا ننكرها هي أن هؤلاء الفرسان قاتلوا ببسالة وبشجاعة ، ودافعوا عن قلعتهم دفاع الرجال ، وانا معجب بهم ؛ لذا فسأعفوا عنهم .

وفي يوم ٢٠ / ١٢ / ١٥٢٢م رُفِعَ العلم العثماني على القلعة ، وارتفع صوت الأذان من برجها الكبير ، واصطف الجنود المسلمون في صفوف الصلاة خلف سلطانهم وإمامهم .

ثم أذن السلطان لوفد من فرسان « رودس » (وكان يطلق عليهم اسم فرسان القديسة « جين » Saint jean) بالمثول أمامه ، فأقبل الفرسان وهم يمشون بين صفين من الوزراء والقواد والحرس ، حتى وصلوا أمام عرش السلطان ، وانحنوا وقبلوا طرف ثوبه إعلانًا لخضوعهم .

كانت هناك نظرة متسامحة في عيني السلطان سليمان ، وكان قد نبه الجميع بألا تَبْدُرَ من أحد أية كلمة إهانة ، أو تحقير للفرسان ... تكلم رئيس الفرسان واعترف بأنهم مذنبون ، وأنهم يأملون ويرجون العطف من السلطان .

قال لهم السلطان :

ـ إن الحاكم قد يفوز ، ويخسر ... وقد أديتم ـ أنتم ـ واجبكم ودافعتم عن قلعتكم بشرف وببسالة ، فلا تبتئسوا .

كانت هذه المعاملة الكريمة لا تشبه في شيء معاملتهم هم للأسرى المسلمين عندما يقعون في أيديهم ، إذ كانوا إما أن يرهقوهم بالعمل الشاق طوال حياتهم ، أو يقيدوهم بالأغلال في سراديب التعذيب .

وفي يوم ١٩ / ١٢ / ١٥٢٢ م دخل السلطان « سليمان القانوني » إلى مدينة « رودس » وتجول في أرجائها ، يحف به الوزراء ، والقواد ، وكوكبة من حرسه ، وبعد انتهاء جولته ، رجع إلى معسكره في خارج المدينة .

وفي ١ / ١ / ١٥٢٣ م استقبل مرة أخرى رئيس وفد فرسان « رودس » واسمه : « فيلارس دي اسلا آدم Villers de Iisl adam » كانت زيارته هذه المرة زيارة توديع ، وبعد أن ذهب رئيس الفرسان مع رجاله متوجهًا إلى المدينة التي اختارها ، قال السلطان لوزرائه وقواده :

ـ أتدرون ... لقد حزنت من أجل هذا الشيخ النصراني ... لقد كنا سببًا في إقلاق راحته ، وهو في هذا السن .

السلطان سليمان
وملك فرنسا الأسير

وقع ملك فرنسا « فرنسيس الأول » (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧ م) أسيرًا في يد امبراطور ألمانيا « شارلكان » بعد هزيمته في معركة « بافيا » التي جرت في ٢٤ / ٢ / ١٥٢٥ م .

على إثر هذا الأسر ، بعث كل من ملك فرنسا الأسير وأمه الدوقة « دانجو » رسالة إلى أكبر إمبراطور ، وأكبر سلطان آنذاك في أوربا وفي العالم ، وهو السلطان « سليمان القانوني » ، يرجوان منه التدخل لإنقاذ الملك « فرنسيس الأول » ، وقام سفير فرنسا لدى الدولة العثمانية الكونت « جان دو فرانجيان Jean Frangipani» ، بإيصال هاتين الرسالتين إلى السلطان « سليمان القانوني » .

كانت رسالة أم الملك الأسير خاصة مؤثرة ومؤلمة إذ كانت خلاصتها هي (لقد كنت اعتمد حتى الآن في خلاص ابني من الأسر على إنصاف ومروءة « شارلكان » ولكن خاب ظني فيه ، إذ أنه مستمر في إيقاع الإهانات بابني ، وبما أن الدنيا تعرف عظمتكم ، وشهرتكم ومجدكم ، فإني أتوسل إليكم يا صاحب الجلالة أن تسعوا لخلاص ابني ولإنقاذه) .

بعد أن قرأوا الرسالة على السلطان ، وترجموها له ، التفت إلى وزرائه وإلى أصحابه قائلاً لهم بألم :

ـ أرأيتم كيف يخفق قلب الأم حزنًا وألمًا على والدها ؟

ثم أمر بإرسال رسالتين إحداهما للملك الأسير « فرنسيس الأول » والأخرى لوالدته ، وكان ملخص رسالته للملك هو :

(إلى « فرنسيس » ملك « أيالة » فرنسا ... لقد وصلت رسالتك إلى السلطنة بوساطة رجلكم « سفيركم » « فرانجيان » ، كما بعثتم بوساطة شفوية ، فهمت منها أن الأعداء دخلت بلدكم ، وأنكم لا تزالون حتى الآن في الحبس ، وترغبون معاونتنا في هذا الخصوص .

ليس عجيبًا أن يُهزم الملوك وأن يُحبَسُوا ؛ لذا فعليكم ألا تبتئسوا إن خيولنا ، وسيوفنا مستعدة على الدوام في الليل وفي النهار ، وسيكون وفق ما تريده مشيئة الله سبحانه ـ وتعالى ـ من أمر أو خير) .

من تدقيق رسالة السلطان هذه ، نرى أن السلطان لا ينظر إلى فرنسا كدولة وما يَعُدُّها إلا « إيالة » أي مقاطعة من المقاطعات ، ولا يرى ملكها إلا بمثابة ملك على مقاطعة ، وهو يطيب خاطره ، ويهون عليه هزيمته ، وحبسه ويعده بالمستقبل بشكل غامض قائلًا :

إن ما أراده الله كان ، وإن خيوله وسيوفه مستعدة على الدوام .

والحقيقة أنه لم يكن يرغب في إظهار خططه ، ونيته في التوجه إلى الحرب . فقد وصلته الأخبار بأن العالم المسيحي يعد حملة صليبية كبيرة ضد الدولة العثمانية ؛ لذا كان يستعد لمواجهة هذه الحملة ، وبعد أن تم استعداده توجه إلى « المجر » ، حيث قابل هناك جيوش

الدول الأوربية المشتركة في هذه الحملة الصليبية ، وكانت أهم هذه الدول هي : المجر ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وأفلاك ، بفدان ، وبولنده ، كما اشترك البابا أيضًا بجنوده ، ووقعت هناك معركة « موهاج » التاريخية بين الطرفين في ٢٩ من آب سنة ١٥٢٦ م ، وكانت معركة قاسية ؛ لضخامة الجيوش المشتركة فيها ، وكانت النتيجة نصرًا ساحقًا للجيش الإسلامي ، وهزيمة كبيرة لملوك أوروبا ، ولجيوشها الجرارة .

بعدما تلقى « شارلكان » امبراطور ألمانيا (الذي كان مشتركًا في هذه الحرب » هذه الهزيمة الشنيعة ، تخلى أولًا عن مطامعه في بعض الممتلكات العثمانية في أوربا ، كما اضطر إلى إخلاء سبيل « فرنسيس الأول » ملك فرنسا الأسير لديه ، لعلمه برغبة السلطان في ذلك .

*****

اليهودي
والسلطان سليمان القانوني

نحن الآن في « اسطنبول » وفي عهد السلطان « سليمان القانوني » الذي بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها في عهده ، وعاشت دورها الذهبي .

كان السلطان يريد أن يبني جامعًا يكون فريدًا بين الجوامع ، التي بناها أجداده في اسطنبول .

يجب أن يكون جامعًا فخمًا ورائعًا وكبيرًا ، وفي أجمل موقع في اسطنبول . وتفرق رجال السلطان في أرجاء المدينة يبحثون عن أنسب مكان لهذا الجامع .

كانت هناك عدة أماكن ... ولكن مكانًا معينًا كان أنسبها وأوسعها وأجملها ؛ ولكن كانت هناك مشكلة صغيرة ؛ فقد كان هناك كوخ صغير ليهودي في وسط هذا المكان المختار ، وكان لا بد من إزالته قبل المباشرة في بناء الجامع .

طرقوا باب الكوخ الصغير فخرج إليهم اليهودي :

ـ خيرًا ... ما الأمر ؟

ـ نحن رجال السلطان ، ونبحث عن مكان مناسب لبناء جامع حسب أوامر السلطان .

ـ وما دخلي أنا في الموضوع ؟ أنا لست بنَّاءً .

ـ ولكن هذا هو المكان الذي تم اختياره لبناء الجامع ، وكوخك في وسطه ؛ لذا فلا بد من إزالته .

ـ هو ستهدمون كوخي ؟

ـ نشتريه منك ... فكم تطلب ثمنًا له ؟

ـ كلا ... أنا لا أنوي بيعه .

ـ نعطيك مبلغًا مناسبًا تستطيع أن تشتري به بيتًا أفضل من هذا الكوخ الصغير .

ـ كلا ... كلا ... إنني راضٍ عن كوخي ... صحيح أنه كوخ صغير ، ولكنه يشرف على أجمل منظر كما ترون ... يشرف على منظر مياه الخليج .

ـ سنعطيك أضعاف سعره .

ـ كلا ... أنا لا أنوي بيعه ... ثم إنه قريب من محل عملي .

لم ينفع أي كلام مع هذا اليهودي المعاند ؛ لذا رجعوا إلى السلطان ومثلوا بين يديه :

ـ أيها السلطان ... هناك كوخ ليهودي في وسط العرصة التي تم اختيارها لبناء الجامع والتي نالت إعجابكم ... حاولنا شراءَه منه ، ولكنه لم يقبل مع أننا عرضنا عليه مبلغًا كبيرًا ، فإذا صدرت أوامركم السلطانية قمنا بطرد هذا اليهودي المعاند ، وهدم كوخه .

هز السلطان رأسه علامة النفي :

ـ كلا ... ليس من عادتنا هذا ، ولا يسمح ديننا بظلم أحد ، أو ترويعه ... يجب أن نجد حلًا مناسبًا .

وهكذا توقف موضوع بناء الجامع بحثًا عن حل شرعي .

وأخيرًا قرر السلطان استشارة شيخ الإسلام في الأمر ، فأجابه شيخ الإسلام :

ـ حكم الإسلام واضح في هذا الأمر أيها السلطان ... لا نستطيع فرض أي جزاء أو عقاب على اليهودي لامتناعه عن البيع ؛ لأن الكوخ ملكه ، ولا يجوز أخذه قهرًا ، وإذا مات فإن أبناءه يستطيعون أيضًا الامتناع عن بيع الكوخ ؛ لأن الشرع يقر انتقال المال من الآباء إلى الأبناء ... وباختصار لا يوجد أمامكم سوى سبيل واحد وهو : القيام بإرضاء هذا اليهودي .

فكر السلطان مليًا في الأمر ، ثم التفت إلى رجاله قائلًا لهم :

ـ سأذهب بنفسي إليه ، وسأرجو منه بيع الكوخ .

وهكذا كان ... ذهب السلطان سليمان القانوني نفسه إلى كوخ اليهودي ، وترجل عن جواده ، ثم طرق الباب .

خرج اليهودي ليرى أمامه سلطان المسلمين ، وحوله بعض رجاله ... وذُهِلَ وهو يستمع إلى السلطان ، وهو يرجو منه بيع الكوخ ... لم يستطع أن يرفض هذه المرة ، ولاسيما أن السلطان عرض عليه أضعاف المبلغ المعروض عليه سابقًا من قبل رجاله .

وهكذا تم شراء ذلك الكوخ .

وهكذا تم بناء جامع « السليمانية » الفخم الذي يُعَد آية من آيات الفن المعماري الإسلامي .

وكان تصرف السلطان في هذا الأمر شاهدًا من شواهد العدالة الإسلامية . العدالة والرحمة للناس جميعًا .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

*****

مناظرة في مجلس
السلطان سليمان القانوني

بدأ الجميع في « اسطنبول » يتحدثون عنه ... عن رجل غريب الأطوار ظهر فجأة في « اسطنبول » وبدا يناقش علماءها نقاشًا غريبًا .

من كان هذا الرجل ؟ وحول أي موضوع كان نقاشه ؟

كان اسمه « الملاّ قابز » ، قيل : إنه جاء من إيران ، أما موضوع النقاش الذي أثاره في « اسطنبول » فقد كان حول النبي « عيسى عليه السلام » أفضل من نبينا « محمد ﷺ » وأعظم قدرًا ، وأن الدين النصراني أفضل من الدين الإسلامي ، ويقوم في أثناء نقاشه هذا بإيراد بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ويؤولهما ويلويهما وصولًا إلى غايته .

بعد أن فشى وانتشر خبر هذا الرجل ، وخبر نقاشه الغريب بين أهالي مدينة « اسطنبول » وبدأت الجماهير تتذمر وتغضب من هذا الرجل ، قام « الصدر الأعظم » بإرسال رسول إلى « الملاّ قابز » يدعوه إلى مجلس السلطان « سليمان القانوني » .

فرح الرجل بهذه الدعوة ... إذن فقد نجح في إثارة زوبعة في « اسطنبول » وأصبح رجلًا مشهورًا ، وأن شهرته وصلت حتى إلى

السلطان « سليمان القانوني » الذي سيرتب في حضوره نقاشًا بينه وبين علمائه ، وكان واثقًا أنه سيتغلب في النقاش على خصومه .

حضر « الملا قابز » إلى ديوان السلطان في الوقت المحدد ... كان « الصدر الأعظم » جالسًا مع بعض الوزراء ، وكان هناك أيضًا شخصان بزي العلماء ، لم يرهما قبلًا ، أما السلطان « سليمان » فقد كان جالسًا خلف ستار مسدل ، يسمع النقاش ولا يراه أحد .

بدأ « الصدر الأعظم » بسؤال « الملاّ قابز » عن صحة ما يشاع عنه من نقاش ومن ادعاء ، فأيد « الملاّ قابز » ذلك ، فطلب « الصدر الأعظم » منه إيراد أدلته حول زعمه ، وقال بأنه جلب لنقاشه عَالِمين أحدهما : مفتي « الأناضول » والآخر : مفتي « الروملي » وأشار إليهما .

بدأ « الملاّ قابز » بشرح دعواه ، وأورد الآيات ، والأحاديث التي تؤيد وجهة نظره بزعمه ، فانبرى إليه العالِمان يشرحان له سوء تأويله لهذه الآيات ولهذه الأحاديث ، وسوء تفسيره ، وسوء فهمه لها . وبدءا بشرح المعنى الحقيقي ، والتفسير الصحيح لها . ولكن « الملاّ قابز » عاند في موقفه ، وأصر على رأيه ، واستمر النقاش عدة ساعات » ، دون جدوى حتى احْتَدَّ العَالِمان وقالا بأن كلامه هذا يعد ارتدادًا عن الإسلام ، وأنه يجب إقامة حد الارتداد عليه ، إن لم يتب ويرجع عن رأيه . ولكن « الصدر الأعظم » لم يمسه بأي سوء ، وسمح له بالانصراف .

بعد انصراف « الملاّ قابز » دعا السلطان « سليمان القانوني » ـ الذي سمع النقاش جميعه ـ « الصدر الأعظم » إليه وقال له :

ـ كيف تركته يمضي ؟ ألم تسمع الدعاوى الباطلة التي ادعاها ؟

ـ ولكن الفكر لا يحارب إلا بالفكر ، يا مولاي وليس بالقوة ، ونحن لم نستطع في هذا المجلس إفحامه ؛ لذا تركته يمضي .

ـ إذن فماذا ترى ؟ أنتركه هكذا طليقًا ينفث سمومه ؟

ـ يجب أن يتم إفحامه أولًا يا مولاي ، ومتى تم ذلك أقمنا عليه حد المرتد إن لم يتب .

ـ وكيف نستطيع إفحامه وهو بهذا العناد ؟

ـ ليس هناك إلا عالم واحد يستطيع ذلك يا مولاي .

ـ من هو ؟

ـ شيخ الإسلام العلامة « ابن الكمال » .

ـ إذن فادعه سريعًا ، ودعه يناقشه في حضورنا .

تم ترتيب مجلس المناظرة في مجلس السلطان « سليمان القانوني » للمرة الثانية ، حضر « الملاّ قابز » المجلس ، وقد امتلأ غرورًا ، وفرحًا بهذه الشهرة التي وصل إليها ... ولكنه وجد أمامه هذه المرة عالمًا من طراز آخر ... وجد نفسه أمام « ابن الكمال » العالم المشهور .

لم تطل المناظرة في هذه المرة ، إذ سد « ابن الكمال » أمام « الملاّ قابز » جميع الأبواب ، وجميع السبل ، وحاصره بعلمه ، وبمنطقه حتى

أفحمـه ، وجعلـه عـاجزًا عـن قـول أي شـيء ، فـنكس برأسـه وسكت ... كان السلطان يسمع مـا يجـري في المجلـس مـن منـاظرة ، وعندما تم إفحام « الملاّ قابز » امتلأت نفسه سرورًا .

انتظر « ابن الكمال » فترة ، ولما طال سكوت « الملاّ قابز » عرض عليه التوبة والاستغفار ، وإلا عُدَّ مرتدًا ، وجرى عليه حكم المرتـد ، ولكن « الملا قابز » شعر بالإهانة من هزيمته ، فأخذته العزة بـالإثم ، وبدلًا من التوبة والاستغفار ، بعـد أن تـبين لـه خطـأ دعـواه انفجـر يسب خصمه العلامة « ابن الكمال » سبًا مقـذعًا ... ولكنـه لم يمهـل هذه المرة ، بل سيق ليلقى جزاءه ... جزاء المرتدّ .

*****

معلومات تاريخية

(السلطان سليم الثاني)

والده : السلطان « سليم القانوني »

والدته : خرم سلطان .

ولادته : ٢٨ من مايس سنة ١٥٢٤ م .

ارتقاؤه العرش : ٣٠ من أيلول سنة ١٥٦٦ م .

وفاته : ١٥ من كانون الأول سنة ١٥٧٤ م .

أهم أعماله الحربية : استعادته لمدينة « أدنة » .

فتح جزيرة « قبرص » .

فتح « تونس » للمرة الثانية بانتصاره في معركة « بوغدان » الشهيرة ، فته لكثير من القلاع في أوروبا .

هُزم أسطوله أمام أساطيل الصليبيين في معركة « إنا بختي » البحرية .

*****

فتح جزيرة قبرص

تم فتح جزيرة قبرص من قبل العثمانيين في عهد السلطان « سليم الثاني » (١٥٢٤ ـ ١٥٧٤ م) . وهو ابن السلطان « سليمان القانوني » كان قراصنة البندقية قد اتخذوا قبرص مقرًا ومركزًا لهم ، ينطلقون منها فيستولون على السفن التجارية ، وينهبونها ويأسرون ملاحيها ، والمسافرين عليها ، كما بدؤوا بالتعرض للسفن التي تحمل الحجيج ويأسرونهم . وكان هؤلاء الأسرى يُستعبدون أو يُقتلون .

ضاق صدر السلطان « سليم الثاني » ، وضاقت صدور الناس من هؤلاء القراصنة ، وتأثرت التجارة البحرية بسببهم ، وكان السلطان « سليم » قد رجا والده السلطان « سليمان القانوني » عندما كان وليًا للعهد ، أن يضع حدًا لشرور هؤلاء القراصنة وذلك بفتح جزيرة قبرص وطردهم منها ، إلا أن والده كان مشغولًا بفتوحات أكثر أهمية ؛ لذا فقد قال لابنه :

ـ يا بني ... إن لم ييسر الله لنا فتح جزيرة قبرص ، فإني أدعو الله تعالى أن ييسر فتحها لكم ؛ لذا فبعد مضي ما يقارب السنة ونصف السنة على توليه الحكم ، بدأ يخطط لغزو « قبرص » ، فدعا إليه وزيره « لآله مصطفى باشا » ، ووزيره « بيالا باشا » ، وكلفهما بغزو « قبرص » ، والقضاء على الفساد الذي ينشره القراصنة في هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط ، وإرجاع الأمن والطمأنينة إليه ، وجعل الوزير الأول قائدًا للحملة .

في يوم ١٥ من مايس سنة ١٥٧٠ م تحرك الأسطول العثماني من مدينة « اسطنبول » وتجمع الأهالي يهتفون ويلوحون لجنود وقواد هذه الحملة ، ويدعون الله بالنصر لهم .

عندما علم البندقيون بنية السلطان في إرسال حملة بحرية ، أرسلوا رسلًا إلى البابا يرجونه مساعدتهم ، فجهز البابا أسطولًا بحريًا على عجل وأرسله مع بعض الجنود لمساعدتهم .

وفي ١ من تموز سنة ١٥٧٠ م وصلت الحملة العثمانية إلى مياه مدينة « ليماصول » القبرصية . وفي اليوم الثاني نزل الجنود إلى البر ، وهاجموا قلعة « لافتاري » واستولوا عليها . ثم استولوا على مدينة « كيرنا » ، وبعدها تقدموا وحاصروا مدينة « لفكوشا » التي سقطت في أيديهم في ٩ من أيلول سنة ١٥٧٠ م . ثم توجهوا بعدها إلى أكبر قلعة في جزيرة قبرص آنذاك ، وهي قلعة « ماكوسا » التي كان يوجد فيها الحاكم البندقي وحاصروها .

كانت القلعة حصينة ، وكان الشتاء قد أقبل ، فلم يجد العثمانيون مناصًا من انتظار رحيل الشتاء .

وعندما رأى « نيكولا داندولا » حاكم قبرص المحاصر في هذه القلعة إصرار العثمانيين على الحصار ، استدعى إليه قائد جيشه « براكادينو » للتباحث معه حول الموقف الميؤوس منه وسأله .

ـ ماذا تقول يا « براكادينو » ؟ هل هناك من أمل ؟

ـ لقد قطعوا عنا طريق الإمداد الخارجي يا سيدي ، وها هم

يحاصرون القلعة منذ شهور ، ولا يبدو أنهم ينوون فك الحصار إلا بعد الاستيلاء على القلعة .

ـ إذن ما العمل ؟ هل هناك من سبيل آخر غير التفاوض معهم ؟

ـ لا أرى سبيلًا آخر يا سيدي .

ـ إذن فليس أمامنا سوى التفاوض معهم على شروط الاستسلام سأرسل لهم وفدًا للمفاوضة .

ـ إنني مستعد أن أكون أنا رئيس وفدك إليهم يا سيدي .

ـ لا مانع لدي .

استقبل الوزير « لآله مصطفى باشا » وفد التفاوض برئاسة القائد « براكادينو » . وبعد أن أنصت إلى مطالبهم بالسماح لهم بالخروج سالمين من القلعة مع كل أموالهم قال لهم :

ـ حسنًا ... نقبل هذا ... تستطيعون أن تخرجوا بأمان ، وأن تتوجهوا وتسافروا إلى البلد الذي ترغبون ، ولكن عليكم أن ترجعوا لنا السفن التي استولى قراصنتكم عليها .

ـ حسنًا سنرجعها إليكم ، ولكن بعد أن نصل إلى بلادنا سالمين .

ولكن من يضمن لنا ذلك ؟ من يضمن لنا أن تعيدوا لنا هذه السفن ، بعد أن تكونوا خارج قبضتنا ؟ ... لذا أقترح أن تعطونا قائدًا من قوادكم يكون رهينة في أيدينا نطلق سراحه حالما تعود سفننا إلينا .

ـ لا نستطيع أن نعطيكم ذلك .

كظم الوزير غيظه من هذا الجواب ، ولكنه استمر في التفاوض .

ـ يجب أن نصل إلى حل في هـذا الخصـوص ، كمـا نطلـب مـنكم إعادة جميع الأسـرى الـذين أسـرتموهم عنـد اسـتيلائكم علـى هـذه السفن .

ـ وهذا مستحيل أيضًا ... لا نستطيع إعادتهم إليكم .

ـ وما المانع؟

ـ لأننا قتلناهم جميعًا .

هنا انتفض « لآله مصطفى باشا » مـن مكانـه ، وقـال وقـد احمـر وجهه من الغضب ، وتطاير الشرر من عينيه :

ـ أتقتلون أسرانا أيها المجرمون مع أننا لم نقتـل أسـيرًا واحـدًا مـن أسراكم ؟ ستدفعون حياتكم ثمنًا لجريمتكم النكـراء . وامر حراسه فقتلوا أفراد الوفد .

في اليوم التالي : بدأ الهجوم على القلعة الحصينة ، ومـرت الأيـام وتكرر الهجوم ، وقُصفَت القلعة بالمـدافع حتـى سـقطت بأيـديهم في ١ من آب سنة ١٥٧١ م .

*****

معلومات تاريخية

(السلطان مراد الرابع)

والده : السلطان « أحمد الأول » .

والدته : ماهبكير كَوسَمْ سلطان .

ولادته : ٢٧ من تموز سنة ١٦١٢ م .

ارتقاؤه العرش : ١٠ من أيلول سنة ١٦٢٣ م .

وفاته : ٨ ـ ٩ من شباط سنة ١٤٦٠ م .

أهم أعماله الحربية : قاد حملة على « بولندا » بعد إخلالها بمعاهدتها مع الدولة العثمانية ، وأجبرها على التمسك بتلك المعاهدة .

انتصاره على الصوفيين ، والاستيلاء على مدينة « تبريز » وقلاع في إيران . فتح بغداد .

*****

فراسة السلطان

تناهى إلى سمع السلطان « مراد الرابع » (١٦١٢ ـ ١٦٤٠ م) أن أحد رؤساء مفتشي البلدية في « اسطنبول » يأخذ الرشوة من الأهالي ، فاستدعى إليه أحد رجاله ، وكلفه بمراقبة ذلك الشخص خفية ؛ لمعرفة مدى صدق التهمة الموجهة إليه .

بعد شهر كامل من المراقبة ، رجع السلطان إليه لإعلامه بنتيجة مراقبته :

ـ لم أَرَ أي شيء مريب في سلوكه يا مولاي ... وأنا أعتقد أن التهمة الموجهة إليه باطلة ، وأنها ليست إلا إشاعة كاذبة .

ـ وأنا لا أعتقد أن الأهالي كذبوا في هذه الشكوى ... إذ لا دخان بلا نار ، ولكني أرى أنك لا تملك الفراسة الكافية . ثم صرفه .

وفي اليوم الثاني استدعى السلطان ذلك الشخص المتهم (أي رئيس مفتشي بلدية « اسطنبول ») ، وعندما مثل بين يديه ، ناوله كيس نقود ، وقال له :

ـ سأرسلك في مهمة ، فقد سمعت وجود شخص محتاج وفقير يصلي صلاة الفجر في جامع « أيا صوفيا » ، ويقف بعد الصلاة في الركن الفلاني من الجامع ... اذهب إليه وادفع له هذا الكيس من النقود .

ـ سمعًا وطاعة يا مولاي . وأدى هذا الشخص المهمة التي كلفه

بها السلطان ...: ذهب لصلاة الفجر في جامع « أيا صوفيا » ، ووجد ذلك الفقير في المكان الذي وصفه السلطان ، ودفع إليه كيس النقود :

ـ خذ هذا الكيس من النقود ن فقد أرسله السلطان إليك .

ـ مد الله في عمر السلطان ، وأيده بنصره .

في اليوم الثاني : أمر السلطان بالقبض على رئيس المفتشين وإيداعه في السجن . وما أن انتشر هذا الخبر بين الأهالي حتى عمت الفرحة بينهم ، فقد تخلصوا من هذا الموظف المرتشي .

ولكن وزراء السلطان دهشوا وتعجبوا من تصرف السلطان الذي لم يكن يعاقب أحدًا دون ذنب ، ودون إثبات التهمة ضده ، إذ كيف تسنى له أن يعرف صدق التهمة الموجهة إلى ذلك الشخص ؟

قال لهم السلطان :

ـ لقد كان ذلك الفقير المتسول أحد رجالي المتنكرين ، وقد قمت بامتحان أمانة هذا الشخص فأرسلته إلى هذه المهمة ، وأعطيته كيسًا فيه خمسون ليرة ذهبية ، ولكنه سلم الكيس وفيه خمس ليرات فقط ، أي أنه قام بسرقة خمس وأربعين ليرة ذهبية ، فعلمت أنه شخص خائن وغير أمين .

*****

أغرب اسم لجامع

أجل ! ... إنه أغرب اسم لجامع في العالم كله .

وإلا فهل هناك جامع اسمه : « كأنني أكلت » !! .

هل سمع أحد بمثل هذا الاسم الغريب ؟

ولكن هذا هو اسم جامع صغير في منطقة « فاتح » في « اسطنبول » ... والاسم باللغة التركية « صانْكَي يَدِمْ » ... أي « كأنني أكلت » !! . « أو افترض أني أكلت » !!

ووراء هذا الاسم الغريب قصة غريبة ، وطريفة ... وقصة فيها عبرة كبيرة .

لكي نعرف القصة الحقيقية لهذا الجامع ، دعنا نفتح الصفحة (١١٩) من الجزء الأول من كتاب « جوامع اسطنبول » Istanbul camileri لمؤلفه « تحسين أوز Tahsin OZ » ؛ لكي نقرأ قصة شخص ورع ، كان يعيش في منطقة « فاتح » واسمه « خير الدين كججي أفندي » .

كان صاحبنا ـ هذا ـ عندما يمشي في السوق ، وتتوق نفسه لشراء فاكهة ، أو لحم ، أو حلوى يقول في نفسه : « صانكَي يَدِمْ » « كأنني أكلت » ، ثم يضع ثمن تلك الفاكهة أو اللحم أو الحلوى في صندوق له .

ومضت الأشهر والسنوات ، وهو يكف نفسه عن كل لذائذ

الأكل ، ويكتفي بما يقيم أوده فقط ، وكانت النقود تزداد في صندوقه شيئًا فشيئًا ، حتى استطاع بهذا المبلغ الموفور القيام ببناء مسجد صغير في محلته ، ولما كان أهل المحلة يعرفون قصة هذا الشخص الورع الفقير ، وكيف استطاع أن يبني هذا المسجد ، فقد أطلقوا على الجامع اسم « جامع صانكَي يدم » .

فإذا تسنى لك زيارة « اسطنبول » وقصدت زقاق « كِرْباجي نام Kirbaci nam sok » في منطقة « فاتح Fatih » فسترى هناك بين البيوت القديمة هذا الجامع الصغير ... جامع « كأنني أكلت » شاهدًا على إخلاص وزهد عميقين لشخص فقير ، استطاع رغم فقره أن يترك من بعده ثوابًا دائمًا لحياته الأبدية .

رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه .

وقد نوه الأستاذ سعيد النورسي بهذا السلوك الورع فقال مشيرًا إلى هذا الشخص ، وإلى هذه القصة :

« كلما نادت اللذائذ ، ينبغي الإجابة بـ (كأنني أكلت) فالذي جعل هذا دستورًا له ، كان بوسعه أن يأكل مسجدًا سمي بـ (كأنني أكلت) فلم يأكل » .

*****

قصة من التاريخ العثماني

السلطان والمهرج

وقعت أحداث هذه القصة في سنة ١٣٩٣ م ، أي عندما كانت الدولة العثمانية في دور الفتوة والقوة ، وفي دور الصعود والتألق .

والسلطان هو السلطان الشاب « بايزيد » الملقب بـ « الصاعقة » للشجاعة التي كان يبديها في القتال منذ أن كان وليًا للعهد .

كان من عادة هذا السلطان سماع شكاوى الناس في البلد الذي يمر منه وهو خارج من عاصمته « بورصة » للغزو ، أو وهو راجع إليها . وكان يعقد لذلك مجلسًا شعبيًا كان يدعى آنذاك « آياق ديواني » .

في أحد هذه المجالس الشعبية تقدمت منه امرأة عجوز وهي تصرخ وتطالب بحقها ... دعاها إليه وطلب منها الإفصاح عن مشكلتها

فقالت المرآة :

ـ يا سيدي السلطان ! ... إن أحد خدمكم ـ من الذين تركتم حبله على غاربه ـ قد اعتدى علي .

ـ ماذا فعل ؟ ... هيا اذكري ولا تخافي .

ـ لقد جاء وشرب حليبي دون إذن مني ، وعندما طالبته بثمنه صرخ في وجهي وشتمني ... ذهبت إلى السيد إمام المسجد وأخبرته

بالأمر ، فاستطاع بمعاونة بعض الأهالي من القبض عليه وسوقه إلى السيد القاضي . ولكن القاضي يا سيدي السلطان أصدر حكمًا لصالحه وأطلق سراحه ... إنني مظلومة يا سيدي السلطان وأطالب بحقي .

أرسل السلطان من يبحث عن هذا الرجل ويجلبه له حالًا .

مثل الرجل أمام السلطان وهو يرتعد من الخوف .

سأله السلطان :

ـ هل فعلت كذا وكذا ؟

قال الرجل المرتعب وهو يتوسل :

ـ اصفح عني يا مولاي ... لقد أغواني الشيطان ... سأدفع لها ما تطلبه ... أقسم بالله بأني لن أعود لمثله أبدًا .

إذن فالتهمة ثابتة ، وسيلقي الرجل جزاءه وتنتهي المسألة عند هذا الحد . ولكن لا .

فالقضية عند السلطان كانت أكبر من هذا بكثير ... القضية المهمة عنده هي كيف أن قاضيًا يقوم بإصدار قرار العفو في تهمة واضحة وثابتة ولها شهود عيان ... كيف ؟ ... هل أخذ رشوة ؟

ألقى السلطان نظرة طويلة على الرجل الذي كاد أن يذوب أمامه ، ثم سأله :

ـ هل دفعت رشوة للقاضي ؟

أجاب الرجل وهو منكس الرأس :

ـ لا والله يا مولاي ... لم أعطه رشوة ... ولكني قلت له : إنني في خدمة السلطان فعفا عني وأطلق سراحي .

قال السلطان وهو يحاول كظم غضبه :

ـ إن الله تعالى لا يصفح عمن يعتدي على حقوق الناس ، ولا يتوب عليه ، فكيف إذن يقوم هذا القاضي بإصدار حكم العفو عمن هضم حقوق الآخرين ... اذهبوا واجلبوا لي هذا القاضي ؟!

وبينما هرع بعض رجال السلطان لتنفيذ أمره التفت السلطان إلى رئيس حراسه وقال له :

ـ اجمع رجالك واطرق باب كل بيت في المدينة ، واكتب اسم كل من له شكوى ضد القضاة أو ضد الحاكم ، ثم تعال وأخبرني ... يجب أن نعيد العدل ـ الذي هو أساس الملك ـ إلى مجراه من جديد .

أتم رئيس الحراس مهمته بعد بضعة أيام ، ثم قدم قائمة الأسماء إلى السلطان .

ما أن ألقى السلطان نظرة على قائمة الأسماء حتى أطلق آهة عميقة .. لقد رأى مدى كثرة الأسماء ... تمتم هامسًا :

ـ معنى هذا أننا قد اقتربنا من نهايتنا .

ما أن رجع إلى عاصمته « بورصة » حتى أرسل الفرمان الآتي إلى جميع أمراء وحكام الأقاليم :

(قرننا الطلب منكم إرسال كل قاض في قريتكم أو مدينتكم أو قلعتكم شاع عنه مخالفته للشرع الشريف في أحكامه ، أو شاع عنه أخذه الرشوة إلى العاصمة حالًا) .

كان الصدر الأعظم (أي رئيس الوزراء بالتعبير الحالي) « جاندرلي باشا » قلقًا من غضب السلطان في هذا الموضوع ؛ لذا لم يملك نفسه من سؤال السلطان عن العقوبة التي ينوي إيقاعها بهؤلاء القضاة .

قال السلطان الشاب :

ـ إن غياب العدل إشارة إلى زوال الدولة ، وأنا أنوي أن أضع هؤلاء القضاة ـ الذين أصبحوا عاملًا من عوامل النخر في الدولة ـ في بيت ثم أشعل النار فيه .

نزل الجواب نزول الصاعقة على رأس الصدر الأعظم ؛ لأنه كان عقابًا مخيفًا . وعندما سمع الوزراء الآخرون هذا النبأ فزعوا ، ولكن لم يكن في مقدور أي شخص معارضة السلطان المعروف بشدته .

كان هناك شخص واحد فقط يستطيع مخاطبة السلطان في مثل هذه الأحوال ... ألا وهو مهرج السلطان ، فقد كان ماهرًا في أسلوبه عند مخاطبة السلطان ، ويعرف جيدًا كيف ينقل إليه بعض وجهات النظر في قالب من الفكاهة .

استدعى الصدر الأعظم مهرج السلطان إليه وشرح له الموضوع .

قال المهرج :

ـ لا تقلق يا باشا ... هذا الموضوع هين .

في اليوم الثاني لبس المهرج ملابس السفر ودخل على السلطان الذي ابتسم وهو يرى مهرجه في ملابس السفر ... قال له :

ـ ما هذا ؟ أنت عازم على السفر ؟

ـ أجل أيها السلطان ... وقد حضرتِ إليكم لأطلب الإذن منكم لي بالسّفر يا مولاي .

ـ وإلى أين ستسافر ؟

ـ « إلى بيزنطة » يا مولاي .

ـ وماذا ستفعل هناك ؟

ـ أنا ذاهب إلى بيزنطة لكي أجلب مائة كاهن وقسيس إلى مدينة « بورصة » .

قطّب السلطان جبينه ... مائة كاهن وقسيس إلى بورصة ؟

ـ وماذا يفعل هؤلاء الكهان والقساوسة في بلد المسلمين ؟

ـ سيقومون بأداء وظيفة القضاء فيه يا مولاي .

ـ هل جننت ؟ كهان وقساوسة في منصب القضاء ؟ ألا يوجد لدينا قضاه ؟

ـ لن يبقى هناك قاض بهمتكم يا مولاي وبجهودكم ... لقد قررتم حرق القضاة ؛ لذا لكي لا تتعطل أمور الأمة وقضاياها فقد فكرت في استقدام بعض القساوسة للنظر في شكاوى الناس في المحاكم وحل

مشاكلهم ، فهم أيضًا علماء على نحو ما .

ابتسم السلطان من كلام المهرج ... أحس بثقل العقاب الذي كان ينوي إيقاعه بالقضاة ، ثم قال :

ـ حسنًا ... حسنًا ... لقد تراجعت عن قراري ... لعلي أفرطت في هذا الموضوع ... وقل للوزراء الذين أرسلوك إلي أن يطمئنوا .

ثم اكتفى السلطان بعقاب مناسب للمنحرفين من القضاة .

*****

قصة من التاريخ العثماني

أزمير تبكي دما

حدث ذلك في مدينة « أزمير » في شهر مايس (مارس) من سنة ١٩١٩ م .

كانت الدولة العثمانية قد خرجت خاسرة من الحرب العالمية الأولى ومنهوكة القوى بعد أن فقدت فيها الملايين من خيرة شبابها ... هذه الحرب التي لم تكن الدولة العثمانية مستعدة لها لا من الناحية الاقتصادية ولا من الناحية العسكرية ، بل دفعتها إليها حماقة جمعية الاتحاد والترقي وخيانتها ... هذه الجمعية المشبوهة التي تربت في المحافل الماسونية ، ثم أصبحت تحت نفوذ الدول الألمانية ، فدخلت الحرب إلى جانبها دون أن تكون لها أي مصلحة في الدخول إلى أتون هذه الحرب الرهيبة .

بعد تراجع الجيوش العثمانية ، بدأت جيوش الحلفاء بالاستيلاء على المدن التركية المهمة ... من هذه المدن كانت مدينة « أزمير » ، وكان من نصيبها دخول الجيش اليوناني إليها واحتلاله لها .

بعد هذا الاحتلال طالبت اليونان بإلحاق مدينة أزمير والمناطق المحيطة بها إليها ، وفعلاً تم قبول طلب اليونان ونص على ذلك في معاهدة « سيفر » المشهورة التي تم التوقيع عليها عام ١٩٢٠ م .

ولكن معاهدة « سيفر » لم تطبق . ولا نستطيع هنا إيراد تفاصيل

ذلك ، بل نرجع إلى أحداث هذه القصة التي وقعت عشية دخول القوات اليونانية إلى « أزمير » .

في يوم ١٤ / ٥ / ١٩١٩ م وقبل الغروب بقليل ارتفع صراخ من أحد الأحياء التركية في مدينة أزمير :

ـ إنهم قادمون ... اليونانيون قادمون ... عليهم لعنة الله .

بدت طلائع الجيش اليوناني على بعد عدة كيلومترات ، وهي تتقدم نحو المدينة ... سيعسكر الجيش اليوناني بالقرب من المدينة ، ثم يدخلها في صباح اليوم الثاني .

وانتشر الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم .

نزل الخبر في الأحياء التركية نزول نصل خنجر حاد في القلب ... كانت كل أسرة فيها تبكي على شهيد لها ... على ابن أو على زوج أو على أب استشهد في جبهات بعيدة فوق رمال لاهبة ، أو فوق جبال باردة ... والآن ها هم الأعداء يقتحمون عليهم مدينتهم ، والله وحده هو الذي يعلم أي دماء جديدة ستسيل تحت أحذية جنود الأعداء .

أما أحياء الروم ، أي أحياء اليونانيين القاطنين في أزمير منذ مئات السنوات فقد عم فيها الفرح والحبور ... أجل كان هذا هو رد الجميل عندهم ... لقد عاشوا مئات الأعوام في أمن وفي طمأنينة في ظل الدولة العثمانية ... لم يتعرض أحد إلى عقيدتهم أو دينهم ... أعفوا من الخدمة العسكرية فتفرغوا للتجارة ، وأصبحوا من أغنى الطوائف ... تركت لهم حرية التعامل بقوانينهم في الزواج

والإرث ... إلخ . بعد كل هذا الإحسان إليهم ها هم يردون إلى الدولة العثمانية وإلى الشعب الذي آواهم جميلهم ... ها هم يفرحون ويستعدون للاحتفال بقدوم الغزاة المحتلين .

اخرجوا الأعلام اليونانية التي كانوا قد خبؤوها في صناديقهم ... واخرجوا أجمل ملابسهم لأن يوم غد يوم عيد لهم ... عيد استقبال الجنود اليونانيين .

ولكن كان هناك تهيؤ آخر أيضًا .

بعد أن أرخى الليل سدوله اجتمع نفر من شباب أزمير بعيدًا عن الأنظار في مقبرة اليهود يتباحثون في هذه المصيبة الجديدة القادمة ... كان من بينهم الصحفي الشاب « حسن تحسين » الذي ألقى عليهم كلمة مؤثرة والدمع يسيل من عينيه . قال في الأخير :

ـ يا إخواني ... إنهم يريدون إلحاق منطقة أزمير باليونان ... لن نعطي أزمير لهم ... سنقاتل يا إخواني ولن نستسلم لهم أبدًا .

ـ أجل سنقاتل ولن نستسلم لهم .

في صباح اليوم الثاني دخل الجيش اليوناني مدينة أزمير من ناحية « كوردون بويو » المطلة على البحر . كانت الأقلية اليونانية قد اصطفت على جانبي الطريق ، وقد رفعوا الأعلام اليونانية ... كانت الفتيات الشابات والأطفال قد لبسوا ملابس عليها العلم اليوناني ، وكانوا يلوحون بالأعلام اليونانية لجنود الاحتلال ويهتفون بكل فرح :

زيتو فانيزالوس ... زيتو فانيزالوس (أي يحيا فانيزالوس رئيس وزراء اليونان آنذاك) .

كان على رأس هؤلاء المستقبلين الأسقف « خريستوس توموس » أعلى رجل دين مسيحي رتبة في مدينة أزمير ، وثاني رجل دين مسيحي في الدولة العثمانية ، أي يأتي مباشرة بعد « البطريرك » الموجود في اسطنبول .

استمر جنود الاحتلال في مسيرتهم هذه وسط هذه الهتافات وهذه الحفاوة حتى وصلوا إلى موقف « الترامواي » في منطقة « قوقار يالي » ... وفجأة انطلق من بين الجموع الحاشدة شاب كالسهم وصوب مسدسه إلى الجندي اليوناني الحامل للعلم اليوناني في مقدمة الجيش وأطلق عليه رصاصة واحدة فأرداه قتيلاً ثم ولى هاربًا .

كان هذا هو الصحفي الشاب « حسين تحسين » ما أن تخلص الجنود اليونان من تأثير المفاجأة حتى هرع المئات منهم وراء الشاب ، ثم طوقوا المنطقة وبدؤوا يضيقون الخناق عليه .

وأخيرًا حاصروه في أحد الأزقة الضيقة ... أطلق عليهم الرصاص وقاومهم حتى انتهى رصاص مسدسه ، فانهال عليه وابل من رصاص الجنود . كانت هناك امرأة مسنة تشاهد من نافذة غرفتها ما يجري أمامها ، فقد كان الصحفي الشاب واقفًا قرب نافذتها ... وعندما انهال الرصاص على الشاب الفدائي شهقت المرأة وبكت ...

سمعها الشاب حسن فحول بصره إليها وشاهدها وهي تبكي من أجله فقال لها وهو يتهاوى على الأرض :

ـ لقد نفد الرصاص مني يا جدتي ... كوني شاهدة لي يوم القيامة .

لم يكتف الجنود بمئات الطلقات التي مزقت جسد الشاب ، بل تقدموا إليه وأخذوا يطعنونه بحرابهم حتى شفوا غليلهم منه .

كان هذا الصحفي الشاب أول شهيد سجله التاريخ في اليوم الأول من دخول اليونانيين إلى أزمير .

رجع الجنود وبدؤوا ينتقمون من أهل المدينة ... ذهبوا إلى الدائرة العسكرية وأخرجوا رئيسها العميد « سليمان فتحي » إلى باحة الدائرة .

ـ هيا اهتف بحياة فانيزالوس ... قل : يحيا فانيزالوس ... هيا بسرعة .

كان هذا العميد شخصًا أعزل أمام ضباط وجنود اليونان ، ومع ذلك لم يتردد كثيرًا ... بصق على الأرض باحتقار وهتف :

ـ بل ليسقط فانيزالوس .

وبطعنة من حربة بندقية اخترقت صدره انطرح العميد على الأرض شهيدًا .

ثم جاؤوا بالطبيب العسكري العقيد « شكري بك » وطلبوا منه الشيء نفسه :

- هيا اهتف بحياة فانيزالوس .

نظر إلى آمره الشهيد وهو متمدد على الأرض في بركة من الدماء ... كان يعلم أن مصيره سيكون مثل مصير آمره إن لم يجبهم إلى طلبهم ، وجال في خاطره عائلته وأسرته ، ولكنه لم يستطع الهتاف بحياة رئيس وزراء عدوه .

- ليسقط فانيزالوس .

وبطعنة من حربة على قلبه سقط الطبيب العقيد « شكري بك » شهيدًا بجانب العميد الشهيد « سليمان فتحي » .

كانت هذه هي أهم أحداث اليوم الأول من الاحتلال اليوناني لمدينة « أزمير » .

ولكن الأيام التالية له حملت مآسي أخرى كثيرة ... أكثر بكثير من اليوم الأول ... إذ حدثت مذبحة « أزمير » الشهيرة التي تناقلتها الصحف العالمية آنذاك ، ولم تجد الحكومة العثمانية المغلوبة على أمرها أمامها إلا تقديم احتجاج لدى المحافل الدولية .

ولكن هذه المآسي والمذابح والوحشية لم تستطع إيقاف حركة المقاومة وحركة الفدائيين ، بل زادت هذه المقاومة وانتشرت .

وبدأت حرب الاستقلال .

وأخيرًا التقى الجيش التركي في موقعة فاصلة بالجيش اليوناني وهزمه شر هزيمة ، وطارد فلوله المهزومة حتى البحر . وفي ٩/ ٩/ ١٩٢٢ م دخل الجيش التركي مدينة أزمير تحت قيادة « نور الدين باشا » .

وتحررت المدينة .

أورخان محمد علي

آثار المؤلف (تأليفًا وترجمة)

أ ـ الكتب العلمية:

١ ـ دارون ونظرية التطور عن التركية مطبوع

٢ ـ الإنسان ومعجزة الحياة عن التركية مطبوع

٣ ـ في نظرية التطور : هل تعرضت لغسيل الدماغ ؟
عن الإنجليزية مطبوع

٤ ـ الانفجار الكبير Big Bang أو مولد الكون عن التركية مطبوع

٥ ـ أسرار الذرة عن التركية مطبوع

٦ ـ النظرات العلمية ونظرية التطور عن الإنجليزية مطبوع

٧ ـ نظرية التطور ليست ثابتة تأليف مطبوع

٨ ـ تهافت نظرية دارون أمام العلم الحديث تأليف مطبوع

٩ ـ مناقضة علم الفيزياء والفلك لنظرية التطور تأليف غير مطبوع

١٠ ـ سجل المتحجرات يتحدى نظرية التطور
عن الإنجليزية غير مطبوع

١١ ـ الإيدز : مأساة المستقبل عن التركية غير مطبوع

١٢ ـ الدماغ والنظام العصبي في الإنسان عن التركية غير مطبوع

١٣ ـ العلم من نافذة الإيمان عن التركية غير مطبوع

١٤ ـ مذكرات نحلة عن التركية غير مطبوع

ب ـ الكتب التاريخية:

١ ـ السلطان عبد الحميد الثاني: حياته وأحداث عهده تأليف مطبوع

٢ ـ سعيد النورسي: رجل القدر في حياة أمة تأليف مطبوع

٣ ـ روائع من التاريخ العثماني تأليف مطبوع

٤ ـ محمد (ﷺ): مفخرة الإنسانية عن التركية غير مطبوع

٥ ـ قصة حزب الرفاة تأليف غير مطبوع

جـ ـ الكتب الفكرية:

١ ـ موقف الدين من العلم عن التركية مطبوع

٢ ـ حوار حول القضاء والقدر عن التركية مطبوع

٣ ـ حوار حول الحقيقة عن التركية مطبوع

٤ ـ حوار بين مؤمن وكافر عن التركية مطبوع

٥ ـ الموازين: أضواء على الطريق عن التركية غير مطبوع

٦ ـ الأسئلة الحائرة للعصر عن التركية غير مطبوع

*****

المصادر التاريخية

1- Osmanli padisahlari Ansiklopedisi Yeni Asya Yayinlar Yavuz Bahadir Oglu . Istanbul 1986 .

2- Mufassal Oamanli Tarihi Bir Hayet Tara Findan Yazilmistir Sehir Matbaasi/ Istanbul 1957 .

3- Osmanlilarda Fazilet Mucadelesi Tahsin Emal Sebil Yayin evi/ Istanbul 1968 .

4- Zafer mecmuasi .

5- Yeni Nesil Gazetesi / / Tarih Kosesi . Istanbul .

6- Sanl tarihimiz Bahadir aip Yeni Asya Yaynlar / Istanbul.

7- Zaferlerimiz Burhan Bozgeyik Yenl Asya Yaynlar / Istanbul .

8- Bin Yildir Yasayanlar Necmehin Sahiner Yeni Asya Yayinlari Istanbul/ 1976.



فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

*****